الباب الأول

القيم بين المفاهيم العامة والمفاهيم الإسلامية

- القيم : معناها ، وتعريفها ، وأنواعها .
- أهمية القيم وحتمية دراستها ومصادرها .
- مفهوم القيم فى المنهج الإسلامى .
- القيم الإسلامية فى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .
- نماذج من القيم الإسلامية .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

القيم .. معناها ، وتعريفها ، وأنواعها

● معنى القيم :

القيم - جمع قيمة - و« قيمة » اسم هيئة من قام الشيء بكذا ، بمعنى كان ثمنه المقابل له كذا ، ثم استعمل بمعنى القدر والمنزلة ، ومن هنا نشأ المعنى الفلسفى لهذه الكلمة ، « فهو انتقال من دلالة مادية معروفة فى علم الحساب وعلم الاقتصاد السياسى إلى دلالة معنوية تعبر عما فى الأشياء من خير أو جمال أو صواب » (١) .

ويتكون سلم القيم للأشياء من جهة تفاوتها فيما يقتضى لها التقدير أو ما يبعث على الرغبة فيها ، وقد يكون ذلك ثابتاً للشيء باعتبار ذاته أو باعتباره وسيلة لتحقيق معنى فى غيره ، وهذا هو أساس الرغبة . يقول « ديكارت » : « إنّ الوظيفة الحقيقية للعقل أن يفحص القيمة الثابتة لجميع المنافع التى هى ناشئة فيها بصورة ترجع إلى اتجاهنا » (٢) .

ولا تكاد كلمة « قيمة » تستعمل فى الكتابات الاقتصادية المعاصرة ، إذ يستعمل مصطلح : « المنفعة » أو « الثمن » ، وذلك لأن الكلمة مع أنها تعنى « الثمن » فمن الصعب تنقيتها مما لا تزال تتضمنه فى الأذهان من معان فلسفية وأخلاقية اعتبارية .

* *

(١) راجع : معجم العلوم الاجتماعية - إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ - ص ٤٧٣

(٢) رسالته إلى الأميرة « إلياصابت » - المرجع السابق .

● تعريف القيم :

القيم - حسب مفهوم مدارس علم النفس [١] - هى اتجاهات مركزية نحو ما هو مرغوب أو غير مرغوب ، أو نحو ما يصلح وما لا يصلح ، وهذه الاتجاهات قد تكون حباً أو كراهية أو ميلاً أو نفوراً من مواقف وموضوعات وأشخاص ، أو أى جوانب أخرى مثل الأفكار المجردة والسياسيات الاجتماعية .

ويعرِّف العالم النفسى « جوردون البورت » الاتجاهات بأنها عبارة عن حالة استعداد ذهنى وعصبى منظمة عن طريق الخبرة ، توجه استجابة الأفراد نحو كل الأشياء والمواقف التى تتعلق بها .

وقد اقترح « كرتش وكرتشفيلد » تعريفاً آخر مؤداه أن الاتجاهات تنظيم مستمر لعمليات الدوافع والانفعالات والإدراك والمعرفة فيما يتعلق بناحية معينة من عالم الفرد .

وينظر البعض للاتجاه بأن له مكوِّنات ثلاثة :

مكون معرفى : يتضمن اعتقادات الشخص عن الموضوع .

مكون وجدانى : يتضمن مشاعره نحو الموضوع .

مكون سلوكى : يتضمن نزعات الشخص نحو الموضوع .

ولكل شخص اتجاهات توجه سلوكه فيما يتعلق بالمواقف التى يتعرض لها سواء أكانت هذه المواقف ذاتية أو تتعلق بالبيئة الخارجية .. فكل منا يتسم باتجاهات نحو ذاته تتفاوت بين التمجيد والاحتقار ، وقد تتفق هذه الاتجاهات مع تقدير الناس أو تختلف لكنها تؤثر فى سلوكه ونظرته ، كما أن الاتجاهات الخارجية هى التى تحكم أسلوب تعاملنا مع الأفراد والمؤسسات والجماعات والأمم الآخرى ، وهى التى تدفعنا لتشجيع مذهب من المذاهب أو فكرة من الأفكار .

---

(١) راجع : مصطفى أ . سويف « مقدمة لعلم النفس الاجتماعى -القاهرة سنة ١٩٧٥ ص ١٦ وما بعدها .

ومن هنا فإن معرفة الاتجاهات تلعب دوراً كبيراً فى دراسات الشخصية وفى التربية والعلاقات العامة والدعاية والتدريب وتوجيه الرأي العام - ويرى البعض أن العلاج النفسى - فى معنى من معانيه - هو محاولة لتغيير الاتجاهات المعوقة للأفراد نحو الذات أو نحو الآخرين إلى اتجاهات إيجابية لتحقيق الأهداف الإنسانية .

وكلمة « القيمة » تستخدم فى علم النفس الاجتماعى للدلالة على ما يخدم كهدف عام فى مجموعة شاملة لعدد من الاتجاهات .. وهذا يعنى أن القيم تقتصر على الأهداف التى تكون موضوعات لاتجاهات شاملة ، فرفاهية الطفل هدف وقيمة أساسية من قيم الأمومة تنتظم حولها القيم الأخرى كالتعليم والتربية وتوفير الأمان .. إلخ . كما أن النظافة والنظام والعمل - بوجه عام - أهداف أساسية تمثل قيماً فى الإطار العام .

وحين تنتظم فلسفات الحياة لكثير من الناس حول قيم معينة تصبح هذه القيم أكثر شمولاً - وبمعنى آخر : « قيم مركزية » .

وفى التجمعات الكبيرة داخل أى مجتمع يشترك الناس فى القيم إلى حد كبير ، وقد أوضحت الكثير من الدراسات وجود نظم مشتركه للقيم داخل كل مجتمع واختلافها من مجتمع لآخر .

ويرى « مالينوفسكى » و« رادكليف براون » [1] - وهما من أشهر علماء الاجتماع أن القيمة المطلقة هى قيمة استمرار المجتمع ، وأن كل القيم الأخرى يجب أن تُفهم على أنها وسيلة لتحقيق هذا الهدف .

وتشكل القيم المركزية محوراً لكثير من الاعتقادات والاتجاهات والسلوك ، وتؤثر فى التصرفات والأفعال الإنسانية عن طريق إمداد الفرد بإطار مرجعى لإدراك وتنظيم الخبرة وللاختيار بين بدائل الفعل .

---

(١) انظر : د. نجيب اسكندر وآخرين - الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى - دار النهضة العربية - الطبعة الثالثة ص ٤٩٦

والقيم يُنظر إليها على أنها حالات خاصة من مفهوم الاتجاه ، وهى تعتبر محصلة تطور الكثير من عمليات الانتقاء والتعميم التى تنتج اتساقاً طويل المدى وتنظيماً فى سلوك الفرد .

وتعمل القيم فى المجتمعات بوصفها إطاراً مرجعياً مشتركاً فى المواقف المتنوعة بحيث توفق بين الاتجاهات المختلفة فى نظام متكامل مما يخلق مفهوم « الواقع الاجتماعى » الذى يمكن من خلاله الحكم على السلوك [١] .

وإذا كانت القيم المركزية هى محور السلوك والاعتقادات ، فإن القيم الأخرى التى تنتظم حولها تلعب دوراً مؤثراً فى تحديد ملامح الشخصية وأطر التعامل معها . ومما يجدر التنبيه إليه أن ما يمكن اعتباره قيماً مركزية فى مجتمع قد لا يكون كذلك فى مجتمع آخر مما يتبعه اختلاف الواقع الاجتماعى من مجتمع لآخر .

ويعرِّف البعض القيم [٢] بأنها : « أحكام على الأشياء والمواقف ، على السلوك بوجه عام ، على الفكر أو الفعل أو الانفعال ، هى أحكام تقويمية بالخير أو الشر ، بالخطأ أو الصواب ، بالقبح أو الجمال ، بالضرر أو النفع ، كما أنها أحكام تفضيلية .. أى اختيار وتفضيل لسلوك ما أو نشاط ما يشعر معه صاحبه أن له مبرراته بناء على المعايير التى تعلمها من الجماعة وخبرها فى حياته المعاشة ، وفى علاقاته المختلفة من خلال الثواب والعقاب ، ودرجة الإشباع لحاجاته المادية والمعنوية المختلفة .

وهذا يعنى أن قيم كل شخص تختلف فى قليل أو كثير عن الآخرين ، وتبنى على معايير التعلم والخبرات المكتسبة ، والعلاقات الاجتماعية ، ودرجات الإشباع .. لكنه يؤكد أن هذه القيم الصادرة فى شكل أحكام ليست قاطعة أو نهائية ، ولكنها عمليات اختيار وتفضيل تخضع للظروف ، ويمكن أن تتغير من وقت لآخر أو من موقف لآخر حسب ما تفرضه طبيعة الموقف .

---

(١) راجع : د . لويس كامل مليكة - سيكولوجية الجماعات والقيادة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الجزء الأول ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) انظر : د . سعد المغربى ، مقالة تحت عنوان « التنمية والقيم مسلّمات ومبادىء » - مجلة التربية وعلم النفس - عدد مارس سنة ١٩٩١

من كل هذه التعريفات يتضح أن :

* القيم تتغلغل فى نفوس الأفراد ، وتظهر فى سلوكهم صراحة أو ضمناً ، شعورياً أو لا شعورياً ، وهى تعمل كدوافع كما تعمل كأهداف .

* القيم هى علاقة بين الإنسان وبيئته المادية والمعنوية ، وهما إفراز لنشاط اقتصادى اجتماعى معيَّن وظروف وعلاقات معيَّنة ، وعندما تستقر الأوضاع والظروف التى أفرزت القيم فإنها تتحول (القيم) إلى دوافع ذاتية للسلوك سواء أكانت قيماً إيجابية أو سلبية .

* القيم ضرورة اجتماعية باعتبارها معايير وأهداف توجد فى المجتمعات جميعها ، سواء منها القديم أو الحديث ، البدائى أو الحضارى ، المتخلف أو المتقدم - إلا أن هذه المعايير يجب أن تتعرض باستمرار للمتابعة والتقييم حسب درجات النمو والتطور التى تمر بها المجتمعات الإنسانية حتى يمكن النظر إليها كمعايير موضوعية .

* القيم قد تكون إيجابية وصالحة تسهم فى دفع عجلة الرقى الإنسانى ، وقد تكون سلبية وغير صالحة وتعوق حركة المجتمع .

* القيم لا توجد إلا بوجود البَشر ، والبَشر يعيشون فى مجتمعات نواتها الأفراد ، وهؤلاء لا عنى عنهم فى تحديد القيم .

* القيم ما هى إلا علاقة بين كيانين : الذات والموضوع ، والذات هى المرجع الأساسى للقيم ، لأن القيمة إما صادرة من الذات أو راجعة إليها ، ويمكن القول أن هناك قيم ذاتية بحتة ، لكن لا توجد قيم موضوعية بحتة ، ولذلك فإن القيم تصحح عن طريق مسارين ، مسار ذاتى بعد إتمام العمل وقبل ظهور نتيجته النهائية ، ومسار موضوعى عند إدراك النتائج النهائية .

والقيم الصادرة : تتجسد فى السلوكيات سواء أكانت سلوكيات عقلانية

أو سلوكيات عاطفية ، وسواء أكانت سلوكيات دائمة أو وقتية ، وهى قيم صادرة بالأفعال من الذات .

والقيم الواردة : تتجسد فى الإدراك المباشر أو غير المباشر للموضوعات وتحليلها على ضوء الخبرات المشابهة فى الذاكرة ، وهى قيم واردة بالنتائج من الموضوع إلى الذات [١] .

* القيم الإيجابية توجّه الإنسان إلى ما يجب أن يكون وما يجب أن يفعل ، وإذا افتقر المجتمع إلى مثل هذه القيم انتشرت فيه العلل الاجتماعيه والأمراض الإدارية مثل الإهمال والتمسك بحرفية القوانين والمحسوبية والفساد والرشوة .. إلخ

* الخطر الحقيقى علي تماسك نظام القيم لدى مجتمع من المجتمعات هو طول فترة الانتقال والتحول من مرحلة إلى أخرى ، ففى فترات المخاض تهتز القيم السائدة ، وتبدأ قيماً جديدة فى النمو لكنها تحتاج إلى وقت طويل حتى تتبلور وتنضج وتتضح معالمها . وهنا يضعف الالتزام الأخلاقى .. ويضعف تماسك المجتمع .

* *

● أنواع القيم :

يميز عالم النفس « روكيش » [٢] بين نوعين من القيم :

(أ) القيم النهائية : وهى التى يراها قالة الغاية النهائية للوجود والتى تستحق الكفاح من أجلها شخصياً واجتماعياً مثل قيم الحرية والأمان والعدالة الاجتماعية والسعادة .... إلخ

(ب) قيم أدائية : مثل الحب ، والتسامح ، والنظافة ، والشجاعة .... إلخ وهو يراها أقل أهمية من الأولى ويمكن اكتسابها بالتعلم والتوجيه .

---

(١) راجع : د . فيصل قدرى - نظرة ديناميكية فى علم النفس والقيم - دار الطباعة الحديثة - القاهرة سنة ١٩٨٨ ، الطبعة الأولى ص . ٥

(٢) سيكلوجية الجماعات والقيادة - مرجع سابق ص . ٥ وما بعدها .

ويرى كثير من علماء الاجتماع أن القيم تنقسم إلى :

١- قيم مستديمة : تمثل جزءاً من الشخصية الإنسانية ولا بقاء للإنسان إلا بها مثل الحرية والعدالة والأمن .... إلخ .

٢ - قيم متغيرة : تخضع لأنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمستوى الثقافى والفكرى للمجتمع الذى تسوده - مثل النظافة وتقدير العمل وصلة الأرحام .. وغيرها .

ويرى بعض علماء الاقتصاد أن القيم تنقسم إلى :

* قيم إيجابية : تساهم فى تنمية المجتمعات وتقدمها مثل حب العمل والإنتاج وحرية الرأى والتعبير والتوازن فى الإنتاج والاستهلاك .

* قيم سلبية : تعطل مسيرة التنمية وتعوق التقدم ومنها : الاتكالية وعدم التخطيط للمستقبل ، الارتجالية والفوضى ، عدم المرونة فى التعامل مع المتغيرات السريعة ، نفاق السلطة والخوف منها .. إلخ

وينظر الفيلسوف « شبرانجر » للقيم على أنها تنقسم إلى ست مجموعات :

١ - القيم النظرية : وهى تهتم بالكشف عن الحقيقه من خلال منهج علمى نافذ يسعى وراء التشابه والاختلاف بين الأشياء دون النظر إلى المنفعة أو الجمال ، أى أن الهدف والغاية الأساسية هى البحث عن المعرفة وتحصيلها دون النظر إلى كم الإنجاز أو التحصيل .

٢ - القيم الاقتصادية : وهى تهتم بالنتائج العملية والعوائد المحققة أو المرتقبة وتعتبر البحث عن المعرفة التى لا يمكن تطبيقها إسرافاً وضياعاً .. وهى كثيراً ما تتعارض مع القيم النظرية .

---

(١) د . بجيب اسكندر وآخرين « الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى » - مرجع سابق ص ٤٩٨

٣ - القيم الجمالية : وهى تسعى وراء الشكل والتناسق وتنصب على الجانب الفنى فى الحياة .. وترى أن الجمال أهم ألف مرة من الحقيقة .

٤ - القيم الاجتماعية : فى أبسط تعريف لها هى الغيرية وعمل الخير ، تدعو للحب وترى أنه الصورة الوحيدة المناسبة للعلاقات بين الناس وهى تهدف إلى صهر الفرد فى المجموع وتجريده من الأنانية وحب الذات ، وخلق روح المشاركة والعمل الجَماعى .

٥ - القيم السياسية : القوة هى الاهتمام الأساسى لهذه القيم ، والسعى وراء القوة هو الدافع الأساسى للحركة والعمل ، والتنافس والصراع على القوة يلعبان الدور الهام فى الحياة .. والقوة توصل إلى السلطة والسيطرة والقدرة على التأثير فى الحياة وفى الناس - لا فى مجالات السياسة فحسب - بل فى كل المجالات .

٦ - القيم الدينية : الإحساس بوجود قوة روحية تنظم الكون هى الحقيقة الأسمى التى تدور حولها هذه المجموعة من القيم - وهى تعنى التجرد من الذات والاندفاع فى الحياة بما يشبع النفس الإنسانية وبما لا يضر بالآخرين وهى تقوم على الأخلاق والإيمان باللّه الخالق ، المراقب ، المعطى والمانع ، والذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ويؤكد « شبرانجر » أن الإنسان لا ينتمى بصورة خالصة إلى أحد هذه المجموعات .. لكن ليس هناك إنسان يخلو من القيم .

ويقسم « استيفن ر . كوفى » [١] القيم إلى ثلاثة أنواع :

قيم تجريبية : تحدث أو تقع لنا خلال مسيرتنا فى الحياة .

---

(١) STEPHEN R . COVEY . , The seven halits of highly Effective people . Simon & Schuster Ltd . London ,1992 .

قيم إبداعية : نأتى بها نحن إلى الوجود

قيم سلوكية : تعبر عن استجابتنا لما يحدث لنا .. وهذه أعلى مستويات القيم ، لأن ما يهم فى المقام الأول هو كيف نستجيب لما نجربه فى الحياة ؟

ويرى « كوفى » أن كثيراً من الناس يتحركون وفقاً لما تمليه عليهم الظروف ، أما « السبّاقون والمسيطرون » [1] وأصحاب الفعالية والإنتاجية فيتحركون من منطلق القيم النبيلة التى تتشربها نفوسهم ، وتصبح جزءاً من تكوينهم لتنعكس على سلوكياتهم فى الحياة .

* * *

(١) يقصد بهم « أصحاب الإنتاجية العالية » " Highly Effective People "

obeikandl.com

أهمية القيم وحتمية دراستها ومصادرها

● أهمية القيم وحتمية دراستها :

تمثل القيم معنى السلوك ودلالته ، ذلك أنه لا يمكن فهم نشاط معين لفرد أو جماعة إلا فى الإطار الأشمل لنشاط هذا الفرد أو تلك الجماعة ، فتضحية الفرد بصالحه من أجل المجموع لا يمكن فهمه إلا فى إطار القيم العامة لهذا الشخص والمتمثلة فى أن المصلحة العامة لديه أهم من مصلحته الشخصية .

كذلك فإن الجماعة الخيرية التى تتخذ قراراً بشأن زيادة مواردها المادية إنما تفعل ذلك فى إطار قيمة عامة تتمثل فى إيمانها بضرورة مساعدة المحتاجين .

وتساعد القيم على احتفاظ المجتمعات بذاتيتها من خلال توجيه أفعال الفرد نحو غايات ومصالح المجتمع [١] .. وهنا تعمل القيمة كمتغير مستقل .. يحاول أن يسيطر على الحس الأخلاقى لأفراد المجتمع وتوجيهها نحو ما يجب أن يكون .

بهذا الإسهام تنجح القيم فى الدخول إلى الخلايا العضويه للمجتمع والمحافظة على ذاتيته .. أما إذا افتقر المجتمع إلى قيم البناء تنتشر فى العلل والأمراض الاجتماعية ، وحين تثبت القيم الأخلاقية يستطيع الناس حكاماً ومحكومين الالتزام بالواجب والتمسك بالفضائل مثل العدل والشجاعة والعفة والنزاهة والصدق والأمانة

* تحدد القيم التزامات الأشخاص ودوافعهم بعيدة المدى ، وهى كثيراً ما تكون غايات فى حد ذاتها ، فإيمان مجموعة من الناس بقيمة حريتهم فى التعبير يجعلهم ملتزمين بتحقيق هذا الهدف ولو ضحوا فى سبيله بالجهد والمال أو الحياة فى بعض الأحيان

---

(١) راجع : د . السيد عليوه « صنع القرار السياسى فى منظمات الإدارة العامة » - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٨٧ ص ٣٢٣

* تساعد القيم فى فهم الشخصية وتحدد أطر التعامل معها فى كثير من الأحيان . فحينما تتاح أمام الإنسان عدة بدائل للسلوك نستطيع الحكم على شخصيته من خلال ما يختاره لنفسه من هذه البدائل ... فمثلاً إذا أتيح لإنسان بديلان أحدهما أن يعمل ليكسب .. والثانى أن يجيئه الكسب بلا عمل .. فوجدناه لا يتردد فى اختيار البديل الثانى . قلنا إن العمل فى ذاته ليس قيمة من قيم حياته مهما أكثر من القول عن قيمة العمل ومزاياه ، فالعبرة بما يحدده السلوك وليس بما يدّعيه اللسان .

* تفهم قيم مجتمع ما يساعد فى منع الأخطاء قبل وقوعها ، فالمجتمع الذى تترسب فى أعماق مواطنيه قيمة الحفاظ على الحياة الإنسانية وتكريم الإنسان ، يكون من الصعب على أى من أبنائه أن يرتكب أو يشارك فى جريمة قتل أو تعذيب للنفس البَشرية .

وفى هذه الحالة فإن مثل هذه القيم الإيجابية تلعب دوراً أهم وأعظم من القوانين والعقوبات المختلفة ، فالقيم المتأصلة فى النفس تكون أكثر قدرة على منع الأخطاء من خوف العقاب أو القانون .

* والقيم الإيجابية تقلل نسبة الخطأ إلى أدنى حد ممكن ، فالطبيب المتميز بقيمه الأخلاقية يفضل إجراء أكبر عدد من التشخيصات وبذل أقصى الجهد من أجل مريضه حتى ولو كان ذلك على حساب وقته وجهده ، بعكس الطبيب الذى يكون شاغله الأساسى هو تحقيق أكبر دخل أو عائد ، فقد يدفعه التسرع والإهمال أو فقدان الضمير إلى تشخيص غير سليم يودى بحياة المريض .

* تقلل القيم الإيجابية من التكاليف الفارقة أو المفقودة ، فأصحاب القيم يؤدون الأعمال التى يُكلّفون بها بأقل تكاليف ممكنة وبأعلى درجات الإتقان ، وهم فى نفس الوقت يسعون للاستخدام الأمثل للموارد المتاحة . بعكس أولئك الذين يفتقدون القيم فإنهم بالإهمال أو بسوء القصد قد يسرفون ويبذرون فى الموارد المتاحة مما يزيد من تكلفة العمل والإنتاج .

وفى هذا أيضاً فإن دور القيم أجدى من دور القوانين والعقوبات ، فالمجرم حين يقف أمام العدالة فإن محاكمته قد تعكس جريمته وسجله الإجرامى وندامته الواضحة واستجابته المحتملة لرد الاعتبار والشرف وفرصته فى سلوك طيب بعد إطلاق سراحه ، لكن ضحيته من القتلى لا يمكن أن يعودوا للحياة ثانية ، والمبنى الذى تسبب فى إحراقه لن يرتفع من بين الرماد .

والتكاليف الفارقة [1] فى فهم رجال الاقتصاد والاجتماع يمكن إرجاعها إلى :

- سوء الإدارة .
- سوء سلوك القائمين على العمل .
- سوء تصرف الذين يُكلَّفون بالتنفيذ .

وهذه الأسباب جميعاً يمكن إرجاعها إلى فقدان القيم ، فسوء الإدارة راجع إلى افتقاد قيم الاختيار الجيد للقيادات والإداريين .

وسوء سلوك القائمين على العمل راجع إلى افتقادهم لقيم الإيمان والإخلاص والشعور بالواجب ، وسوء التصرف راجع إلى عدم الإخلاص فى التعلم والتدريب ، أو اللامبالاة بالعمل ، أو عدم الإحساس بالمسئولية .

* تساعد القيم الإنسان فى التحرر من الأنا والذاتية ، وتجعله يسلك سلوكاً أكثر إيجابية نحو مشكلات الآخرين مما يساعد على تنمية أواصر المحبة والتعاون بين الأفراد .

فالزعماء الذين قادوا الثورات من أجل القضاء على الفساد فى المجتمع هم رجالٌ تخلَّصوا من الأنا وانصهروا بذواتهم فى الوطن الأم فهانت عليهم أرواحهم ، وهم يدركون تماماً خطورة المواقف المقبلين عليها ، لكنهم بعملهم هذا

---

(١) انظر : « الإدارة » تأليف « ربرت روى » (Ropert . H . Roy) - ترجمة د . محمد صبرى العطار ص ٢٠٦

انطلقوا إلى الرحاب الأوسع وصاروا شخصيات عامة تحمل هموم وفكر مجتمعاتهم ، مما جعل الآخرين يرتبطون بهم ويبادلونهم حباً بحب وعطاء بعطاء .

* تخلق القيم نوعاً من أنواع الضبط الاجتماعى الداخلى أو الخارجى فتجعل هناك حدوداً فاصلة بين معايير الخير والشر .. وحين يضعف الاقتناع بالقيم وتتعرض للاهتزاز وتفقد أثرها فى النفوس يحدث ما يسمى بالوهن الخُلُقى فتضطرب المعايير وتضعف قدرتها على توجيه السلوك الاجتماعى فلا تصبح المفاهيم الإنسانية - كالخير والشر - واضحة المعالم .. وحينما تعجز القيم عن مواءمة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى تحدث فى المجتمعات تنتشر ألوان من السلوك ضارة بتماسك المجتمع وبالأهداف الإنسانية النبيلة .

* والقيم والمعايير هى من صميم وجود الإنسان لأنها تتعلق بتطلعاته ومُثُله العليا فى الحياة .. كما أنها تساهم فى تحديد دور كل عضو فى المجتمع وبيان التزاماته وواجباته .. فكل مجتمع يتكون من عديد من النظم - سياسية واقتصادية واجتماعية - وكل نظام مرتبط بقيم تحدد هويته .. فالنظام الاقتصادى فى الغرب يمثل قيم الفردية وتنمية رأس المال والمنافسة ، ويعكس هذه القيم فى مجموعة من المعايير التى قد تأخذ شكل قوانين مكتوبة أو أعراف أو تراث .. وهذه تؤثر فى سلوك أفراد المجتمع ، وتعكس بدورها اتجاهات الناس نحو النظام .

* * *

مصـــادر القيـــم

١ - الأسرة :

الأسرة هى البوتقة الأولى التى يتشكل فيها الطفل ويكتسب مبادئها وقيمها وأخلاقها وعاداتها ، ومنها يستقى أول الأشياء التى تشكل عقله ووجدانه ومشاعره .

وللوالدين تأثير عميق على معتقداتنا وقيمنا ، والحكمة المآثورة تقول : « مَن شابه أباه فما ظلم » .

ونظراً لأن الطفل يرى فى والديه القوة والقدوة فإنه يتبنى غالباً ما يظهرون أمامه من سلوك ومعتقدات ، وقد أثبتت التجارب أن الكثير من اتجاهات التعصب العنصرى مثلاً ترتبط إرتباطاً كبيراً باتجاهات الوالدين .

والخبرات التى يكتسبها الطفل من أسرته بصفه يومية هى بمثابة دستور مكتوب يُقر للطفل الكيفية التى يجب أن يكون عليها سلوكه فى المواقف المختلفة .. والقرارات السلوكية التى يتخذها الآباء بما تنطوى عليه من قواعد أخلاقية هى الزاد الأساسى للأطفال الذى ينمى خلاياهم الفكرية والثقافية ، وهى أمثلة حية يتمثلونها وهم يواجهون مثل هذه المواقف فى حياتهم [١] .. وهذا يعنى أن الطفل لا يتعامل فقط مع القيم والقواعد الأخلاقية داخل الأسرة بل يتعايش معها .

والطفل فى مراحل حياته الأولى لا يسلك سلوكاً معيناً إلا وفى ذهنه قدوة يحاكيها ويتمثل بها ، ومن ثَمَّ يقف سلوك الأبوين كمصدر أساسى لمعلومات

---

(١) أنظر : د . محيى الدين حسين « التنشئة الأسرية والأبناء الصغار » - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٧٧ ص ١٤٤

الطفل ، فهو حين يسمع من والديه يتعلم منهما فقط ما يريدانه ، ولكن حينما يلاحظ سلوكهما فهو يتشبع بهذا السلوك ويتعلم كيف يُصدر السلوك .

وإغفال القيم الأخلاقية وقواعد السلوك من جانب الآباء يدفع الأبناء بدورهم إلى إهمال هذه القيم لأنهم يدركون بشكل مباشر أن هذه القيم ليست حتمية ولكنها مجرد نماذج للسلوك ، ومن ثَمَّ فإن الطفل الذى يرى والديه يهملان فى النظافة كقيمة إيجابية فقد تسقط من وجهة نظره القناعة بهذه القيمة .

ومن هنا تنبع خطورة أن يتربى أطفال فى بيئات وبيوت غير مبنية على القيم الخُلُقية لأن ما سيترسب فى أعماقهم من قيم هذه البيئات يصعب التخلص منه فيما بعد بالعلاج أو التقويم إلا مَن هدى الله !!

والأسرة هى المدرسة الأولى لثقافة الطفل ، ومنها يستقى ما يرى من قيم وعادات واتجاهات اجتماعية ، ومنها يتعلم الحلال والحرام والصواب والخطأ والحقوق والواجبات ، وكل ذلك يتعلمه الطفل فى سنواته الأولى قبل دخوله المدرسة ويشكل بذور ثقافته الأولية ويؤثر فى سلوكه المستقبلى إلى حد كبير .

والطفل الذى يرزقه الله بنشأة طيبة فى ظل أسرة سعيدة تشبع حاجاته الأساسية وتزرع فيه قيم الحب والأمان ، يخرج إلى الحياة بشخصية متزنة محبة للمجتمع ، فى داخلها بذور الخير ، أما الطفل الذى ينشأ فى ظل أسرة مضطربة فهو - والعياذ بالله - مرتع خصب للانحرافات السلوكية والاضطرابات العاطفية .

ويجمع علماء النفس على أن الخبرات التى يكتسبها الطفل من أسرته هى من أهم المؤثرات الأساسية فى مراحل نموه المختلفة .

ويرى « ثورب » [1] أن تأثير الأسرة على نمو الطفل يتضح فى الجوانب الآتية :

---

(١) راجع : د . أحمد عبد العزيز سلامه ، د . عبد السلام عبد الغفار « علم النفس الاجتماعى » - دار النهضة العربية - سنة ١٩٨٠ ص ١٠١

- نمو الطفل الجسمى واحتياجات هذا النمو
- الأمن النفسى للطفل
- الاتزان الانفعالى للطفل
- النضج الاجتماعى للطفل

ولا شك أن الخبرات القاسية التى يكتسبها الطفل من الخلافات التى تنشأ داخل أسرته تترك فى داخله آثاراً نفسية مؤلمة .. فالطفل عادة يحب والديه ويمتص ما يلاحظ من أنماط سلوكهما وقيمهما .. فإذا عايش خلافاتهما فإنها قد تهدد حاجته إلى الحب والأمن النفسى .. وتخلق فى داخله التوترات العصبية والنفسية التى قد تؤدى بدورها إلى سلوك معادى للمجتمع .. وهذا ما يؤكد داخل الطفل القيم السالبة أو القيم غير الصالحة التى تنمو معه فى مراحل نموه المختلفة .

والطفل فى مراحل حياته الأولى يكون حريصاً كل الحرص على تبنى اتجاهات والديه وقيمهم ..

وقد وجد « نيو كومب » [1] معاملات ارتباط مرتفعة بين اتجاهات الوالدين واتجاهات أطفالهم .. وهذا الحرص نابع أولاً من رغبة الطفل فى إرضاء والديه .. وثانياً من رغبته فى إشباع حاجته إلى الحب والانتماء .. وقد بينت دراسة « البورت وكرامر » - ١٩٤٦ - أن ٦٠ ٪ من طلاب الجامعات كانوا قد تأثروا فى تكوين اتجاهاتهم نحو الأجناس بما يؤمن به آباؤهم ، كما كانت النسبة أعلى من ذلك بكثير فى مجموعة الطلاب الذين هم على درجه كبيرة من التعصب والتحيز .

* *

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٦

٢ - المدرسة :

إذا كانت الأسرة هى المزرعة الأولى التى يعايش فيها الطفل القيم وقواعد الأخلاق والسلوك ، فإن المدرسة هى المزرعة الأولى التى يتعلم فيها الطفل هذه القواعد ويدركها ويتفهم معانيها وأهميتها فى بناء المجتمع .

وفى المدرسة يتشكل الأطفال لغة وخُلُقاً وديناً ونمط سلوك ، وفى المدرسة يلتقى الطفل مع القيم بوجهيها النظرى والعملى .. النظرى من خلال المواد التى يدرسها والثقافات المختلفة التى يتزود بها .. والعملى من خلال تصرفات وسلوك الأساتذة الذين يتلقّى عنهم والزملاء الذين يتعامل معهم ، ومن ثَمَّ تتضح خطورة الدور الذى تلعبه المدرسة وأهمية الدعوة التى ينادى بها البعض فى أن تكون المدرسة مكاناً للتربية قبل أن تكون وسيلة لكسب المعرفة .

يقول الإمام محمد عبده [١] : « فمتى وجد الطفل صغيراً فى حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وينطبع فى نفسه صورة ماهم عليه » .

ويرى الإمام محمد عبده ضرورة أن يكون المعلم قدوة صالحة لتلاميذه : « حتى يكون حاله وكماله درساً آخر يُعطى للتلاميذ كل يوم فيطبع هذا الكمال فى نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات فى عقولهم »

ولهذا ينصح الآباء أن لا يبعثوا أولادهم وهم صغار لا يعقلون ولا يفهمون إلى ما يلقى إليهم من المعلم أو المؤدب إلى مدارس يتولى التعليم فيها والإدارة مَن ليس على مذهبهم أو دينهم .

كما يطالب المسئولين عن التعليم بمعرفة أخلاق النظّار والأساتذة الذين وضع الأطفال فى كفالتهم والذين يديرون أمورهم ويرشدونهم إلى كمالهم ، إذ يجب أن

---

(١) انظر : عثمان أمين « رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده » - سلسلة أعلام الإسلام - القاهرة - دار إحياء الكتب العربية - سنه ١٩٤٤ ص ٩٣

يكونوا من أصحاب العقيدة الراسخة والأخلاق الفاضلة والأفكار المستقيمة والعفة والنزاهة والغيرة على مَن أوكل أمرهم اليهم وأداء ما أوجب فى ذممهم .

والمدرسة هى المسئولة عن تكوين الشخصية الأخلاقية للطفل بجوانبها الثلاث :

١- مجاراة القيم العامة الحاكمة لسلوك الأفراد .

٢ - اصطباغ علاقاته مع الآخرين بالتفهم والتعاون .

٣ - الإحساس بالاستقلال عند القيام باختيارات سلوكية معينة .

وهذه الجوانب الثلاث للشخصية الأخلاقية هى المقياس الحقيقى للارتقاء الأخلاقى لدى الطفل (١) .

والطفل حين يصل إلى سن التعليم يكون قد اكتسب من أسرته قيماً واتجاهات أصبحت تشكل جزءاً من شخصيته - وهو فى هذه المرحلة يكون نشطاً وشغوفاً للتعلم ولديه الرغبة فى اكتساب خبرات جديدة ، وهو هنا قد يكتسب هذه الخبرات من أساتذته الذين يقع عليهم عبء الرعاية النفسية وعبء تكوين القيم والاتجاهات الصالحة فى نفوس الأطفال ، كما يقع عليهم عبء تكوين الاتجاهات التى تتمشى مع فلسفة المجتمع .. وقد يكتسب هذه الخبرات من خلال زملائه فى المدرسة (أصحابه) .

والصحبة عامل هام فى نمو الطفل النفسى والاجتماعى ، فهى تؤثر فى قيمه وعاداته واتجاهاته .

وقد أكدت الدراسات التى قام بها « كليفوردوشو » أن الصحبة السيئة تؤدى إلى زيادة نسبة انحراف الأحداث بين الأطفال (٢) .

والجو العام الذى يميز المدرسة يؤثر على شخصية الأطفال وسلوكهم وقيمهم ،

---

(١) انظر : د . محيى الدين حسين - مرجع سابق - ص ١٤٧

(٢) المرجع السابق ص ١١١

وقد دلّت دراسات « كيرت ليفين » [1] أن المعاملة التى تتميز بالاستبداد والسيطرة تتولد عنها روح عدائية بين أفراد الجماعة وتقلل من الاعتماد على النفس وتقتل روح المبادأة .. وهذه كلها قيم سلبية تتأصل فى نفوس الأطفال مع استمرار الدوافع التى أوجدتها .

ويرى كثير من علماء النفس أن المدرسة كمؤسسة اجتماعية يجب أن تهتم برعاية أبنائها من الجوانب النفسية والاجتماعية بجانب اهتمامها بالجوانب المعرفية .

وإذا لم تهتم المدرسة بهذه الجوانب فهناك احتمال كبير أن ينمو الطفل نمواً نفسياً عاجزاً عن التكيف الشخصى والاجتماعى ، وإذا لم تراع المدرسة أن تنمى بين أطفالها القيم والاتجاهات التى يؤمن بها المجتمع .. فينبغى ألا تتوقع تماسكاً لهذا المجتمع .

* *

٣ - الأديان السماوية :

الأديان هى المصدر الأساسى والحقيقى للقيم الإنسانية .. لأن اللّه سبحانه وتعالى خلق الخلق ، والذى يدرك طبيعة النفس البشرية ، وما يُصلح هذه النفس أو يفسدها ، قد وضع من خلال الكتب السماوية القيم الكفيلة بإصلاح الأنفس ودفعها إلى السمو والرفعة .

والقيم الأخلاقية التى جاءت من خلال الاجتهادات البشرية تبدو قاصرة عن تحقيق كافة الأهداف الإنسانية ، لأن هناك جوانب خفية كامنة فى النفس البشرية لم تُكتشف بعد ولا يستطيع العقل الإنسانى المحدود أن يحيط بكل هذه الجوانب ، ومن ثَمَّ كانت الحاجة ماسة وضرورية إلى الرجوع إلى القيم الإلهية .

---

(١) المرجع السابق ص . ١١

كما أن الإنسان بفطرته التى تؤمن بقدرة الله تعالى وقوته تكون استجابته للقيم الدينية أكبر وأسرع من القيم البشرية مما يدفعه إلى الاحتماء بهذه القيم والنزول على وحيها وإرادتها .

والمتأمل لما جاء فى جميع الكتب المنزّلة من عند الله تعالى على حقيقتها يدرك أنها خرجت جميعاً من مشكاة واحدة ، وجاءت فى كل كتاب ، وعلى لسان كل رسول وفق الطبيعة البشرية الفطرية ، ولم يكن لها من هدف سوى تنظيم تلك الطبيعة والسير بها فى الطريق الذى يحقق رضاء الله والسعادة للبشر وهو طريق التوازن والاعتدال .. ومن ثَمّ إذا أريد للإنسان أن يتوافق مع طبيعته التى خلقه الله عليها وأن يخرج من دائرة الانفصام فيجب أن تكون القيم التى تغرس فى نفسه وتحرك حياته نابعة من القيم الروحية والأديان السماوية .

ومن هذا المنطلق يقول الدكتور عبد الله عبد القادر بلفقيه (أندونيسيا) [1] : « إذا كان من الواجب المحتم أن يُتخذ الدين مادة أولى لإعداد الإنسان فليس الإنسان هو الطالب فى أى مرحلة من مراحل التعليم ، بل هو ذلكم المواطن الذى تتكون منه الجماعة أينما وجدت ولأى طبقة انتسب ، وفى أى مكان ، إذن فالمدرسة التى يجب أن يطبق فيها هذا المنهج القويم هى العالم كله فى لغاته المختلفة وأجناسه المتباينة وأفكاره المتباعدة » .

ويقول الإمام محمد عبده فى هذا المضمون أيضاً : « إذا كان الدين كافلاً لتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة ما بيّناه فلِمَ العدول عنه إلى غيره » ؟ [2] .

والحضارات التى تعتمد على الإنجازات المادية وتخلو من القيم الروحية لن يجنى العالم منها إلا الشقاء والدمار ، والعلم وحده دون سياج من قيم تحميه وتوجهه قد يتحول - كما نرى حالياً - إلى أداة للتخريب والهدم بدلاً من أن يكون أداة للتعمير والبنيان .

---

(١) انظر : مجلة منبر الإسلام - العدد ٤٠٩ - جمادى الأول سنة ١٤٠٨ هـ (يناير سنة ١٩٨٨ م) ص ٢٢

(٢) عثمان أمين - مرجع سابق ص ١٦٨

يقول الأستاذ سيد قطب [1] : « إن الشخصية الإنسانية وحدة واحدة فى طبيعتها وكينونتها ، وحدة تؤدى وظائفها كوحدة ، وهى لا تستقيم فى حركتها ولا تتناسق خطواتها إلا حين يحكمها منهج واحد منبثق فى أصله من تصور واحد ، وحين تحكم ضمير الإنسان ووجدانه شريعة ، ثم تحكم واقعة نشاطه شريعة ، وكل من هذه وتلك ينبثق من تصور مختلف ، هذه من تصور البشر ، وتلك من وحى اللّه ، فإن شخصيته تصاب بما يشبه داء الانفصال « شيزوفرنيا » ويقع فريسة لهذا التمزق بين واقعه الشعورى الوجدانى وواقعه الحركى العملى ويصيبه القلق والحيرة كما يحدث اليوم فى أرقى البلاد الأوروبية والأمريكية . وذلك بعد « الفصام النكد » الذى وقع هناك بين الدين والحياة »

هذا الفصام الذى تحدّث عنه الأستاذ سيد قطب هو نتيجة طبيعية لعدم قدرة النفس البشرية على التكيف مع القيم السائدة فى تلك المجتمعات والتى تتجاهل الدين كمحرك أساسى ودافع للحركة والعمل .

يقول الدكتور محمد شعلان أستاذ الطب النفسى بجامعة الأزهر [2] : « إذا اعتبرنا الدين يقوم على الإيمان والعمل الصالح - أى بلغة علم النفس على الوعى والسلوك - فإن حالة الوعى التى تتسم بالضيق والمحدودية هى حالة طبيعية بالنسبة لكائن يسعى لبقاء ذاته ، أى أنه يتصارع صراع الغاب من أجل البقاء ، فهو يعى ذاته ككيان محدد يجب أن يدافع عنه . فيبدأ بإشباع حاجاته الأساسية ثم يتدرج إلى العلاقات الإنسانية التى تشبع احتياجاته العاطفية ، ثم يتطور بعد ذلك ليمد حدود ذاته إلى الأسرة ثم الجماعة التى ينتمى إليها ثم المجتمع ثم الإنسانية ، وفى نهاية المطاف تتفتح حدود ذاته إلى الكون كله .

أى أننا ننتقل من حالة وعى محدودة إلى حالة وعى متسعة وبلا حدود ... وهذا هو عنصر الإيمان » .

---

(١) انظر : أمينة الصاوى « رجاء جارودى وحضارة الاسلام » - مكتبة مصر - ص ١٥٦ د . عبد العزيز شرف .

(٢) جريدة الأخبار المصرية عدد ٤ رمضان سنة ١٤١١ هـ (٢٠ مارس سنة ١٩٩١ م) .

ويرى الدكتور شعلان أن القيم الروحية تسمو بسلوك الإنسان ومن ثَمَّ تسمو بمعاملاته مع الآخرين وتنقله من الانغلاق فى الذات إلى العمل من أجل الآخرين ، وفى هذا يقول : « كل المعاملات التى تقوم على القيم الروحية مثل الحب والإيثار والأمانة والشرف والصدق والاحترام ، كلها تعكس إنكاراً وتجاوزاً للذات ، فهى تحوى فى جوهرها أن الآخر له قيمة مثلما أن لى قيمة ، فالمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهذا يختلف عن الذى يخضع نفسه لأخيه ، فهو محبوب ويحب نفسه ولكنه يحب الآخر مثلما يحب نفسه ، فالذى لا يحب نفسه لا يمكن أن يحب آخر ، لسبب بسيط وهو أن نفسه آخر بالنسبة لغيره .

ويؤكد عالِم النفس السويسرى « كارل يونج » أن انعدام الشعور الدينى يسبب كثيراً من مشاعر القلق والخوف من المستقبل والشعور بعدم الأمان والنزوع نحو الحياة المادية البحتة ، كما يؤدى إلى فقدان الشعور بمعنى ومغزى هذه الحياة ، ويؤدى فى النهاية إلى الضياع .

يقول الدكتور عبد الرحمن محمد عيسى فى كتابه « دراسات سيكولوجية » [1] : « الدين ليس فقط ملجأ لأصحاب الصعاب والمشكلات ، بل إنه يؤمِّن الفرد ضد التعرض لمثل هذه الصعاب ، ففيه وقاية كما فيه علاج لكثير من الأزمات ، فالشعور الدينى يشجعنا على الإحساس بالسعادة والرضا والقناعة والإيمان بالقضاء والقدر ، ويخفف من وطأة الكوارث والأزمات التى تعترض الفرد فى مجرى حياته ، كما أن الاعتماد على الله باعتباره أباً رحيماً شفوقاً بالبَشرية - من شأنه أن يشعر الفرد بالأمان وعدم الخوف أو التشاؤم والضياع ... »

ومن المعروف أيضاً أن للدين دوراً هاماً فى تنمية ضمائر الناس وفى الارتفاع بمستواهم الخُلُقى والسلوكى إلى جانب قيمته النفسية فى التكيف الانفعالى

---

(١) د . عبد الرحمن محمد عيسى « دراسات سيكولوجية » - دار المعارف - سنة ١٩٨١ ص ٢٣٨

فضلاً عن قيمته الاجتماعية وما يضفيه من قدسية وروحانية على العلاقات والروابط الزوجية وصلات القرابة والدم وغير ذلك » [١] .

ويطالب الدكتور عبد الرحمن عيسى بتدعيم دور الدين فى حياة الفرد والجماعة كوسيلة من وسائل الإشباع الروحى والنفسى : « حتى لا يقع مجتمعنا فيما وقعت فيه الحضارة الغربية حين انساقت فى تيار التقدم الصناعى والمادى والتكنولوچى ، وأغفلت التربية الخُلُقية فتحولت قيم الناس إلى قيم مادية صرفة وملحدة ، وبذلك انتشر الفساد الخُلُقى ولا سيما فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية وانفرط عقد الأسرة وضاعت الروابط الأسرية وضعف سلطان الأسرة فى الرقابة على أبنائها ، وكان من نتائج ذلك زيادة نسبة إنجاب الأطفال غير الشرعيين وتفشى تعاطى المخدرات وزيادة حالات الهروب من الأسرة وهجرة الشباب » .

وبحكم الطبيعة الإنسانية فإن القيم الدينية أكثر فاعليه فى النفس وفى المجتمع من تلك القيم التى تستند إلى العقل وحده .

تؤكد هذه المقولة موسوعة « المجالس القومية المتخصصة » فى دورتها الثالثة (١٩٨١ - ١٩٨٢) تحت عنوان « حماية القيم » [٢] فتقول :

تعيش المجتمعات فى عالَم من المتغيرات المتجددة فى الفكر والعلم والمعاملات وأساليب الحياة ، ولم يعد أى مجتمع من المجتمعات فى العصر الحديث يحيا فى ظل خصائصه الذاتية دون أن يتأثر بغيره .

فى كل هذه المتغيرات لم تعد الاتجاهات الفكرية والعقائدية القائمة على العقل متفقة على مبادىء أو قيم بذاتها ، وأصبحت الأخلاق العملية أو السلوكيات تضطرب بين الصحيح والفاسد والحق والباطل .

---

(١) هذه المقولة وتعليقاً على نتائج بحث أجراه المؤلف فى إنجلترا حول العلاقة بين الاتجاهات الدينية والخُلُقية والتكيف النفسى والعائلى بين المراهقين ، ونشر فى صحيفة المكتبة فى أكتوبر سنة ١٩٦٩

(٢) موسوعة المجالس القومية المتخصصة (١٩٧٤ - ١٩٩٠) - المجلد الحادى عشر - القاهرة سنة ١٩٩٠ - بحث تحت عنوان « حماية القيم » ص ٣١٨

وبدا أن العقل لا يستطيع أن يستقل وحده بإدراك الحكمة أو بالحكم فى قضايا الحياة والناس ، ويدل على ذلك ما تعانيه دول الحضارة الحديثة من مظاهر الاضطراب الاجتماعى واختلال القيم وهى تزعم أنها تقيم حياتها وقوانينها على أساس من العقل وأحكامه .

إن من المسلَّم به أن القوانين والنظم والشرائع البشرية لا تغنى عن الشرائع السماوية التى تهيىء للإنسان أسباب الهداية فى جميع شئون حياته على أساس من مبادىء وقيم دينية لازمة للإنسان فى كل مجتمع وفى كل عصر .. بالإضافة إلى أن قيم الدين كانت دائماً أكثر فاعلية فى النفس وفى المجتمع من تلك القيم التى تستند إلى العقل وحده .

والقيم الدينية هى المعايير الحقيقية لمقياس السمو والتقدم والرفعة فى المجتمعات .

يقول الأستاذ عبد الفتاح عبد الله بركة [1] : « إن وجود قيم أصيلة ثابتة كتلك التى يقررها الدين هى التى يمكن أن نقيس إليها مستوانا ونحكم بها على أفعالنا وسلوكنا وتصرفاتنا بما يطابق أو يقارب .. أما فى غياب هذه القيم الأصيلة الثابتة ، وحلول قيم وقتية متغيرة متابعة لواقع الإنسان ومتخذة منه مقياساً فإن الواقع سيظل فى انحداره وتسفله لا يعصمه من ذلك ولا يرفعه عنه قيمة ثابتة لأنها مفتقده وغير معترف بها » .

وفى كتابه « نظريات الشخصية » يقول « هوجان » [2] : إن المحور الرئيسى فى الوجودية هو أن يكون للحياة معنى ، ومن الناحية التاريخية فقد تأكد أن الدين يمنح هذا المعنى .

ولمعالجة ميل الشباب إلى الرذيلة والكسل فى اليابان أصدرت اليابان

---

(١) عبد الفتاح بركة : « حاجة العصر إلى حياة روحية » ملحق مجلة الأزهر - عدد جمادى الآخرة سنة ١٤٠٨ هـ .

(٢) روبرت هوجان « نظريات الشخصية » - نيوجرسى سنة ١٩٧٦ ص ٦٦

القوانين بألا يوظف شاب فى وظيفة عامة إلا بعد أن يدخل المعبد ويمارس فيه رياضة روحية عنيفة ويستوعب من الكهنة تعاليم بوذا العظيم [١] .

يقول : « هربرت سبنسر » شيخ فلاسفة هذا العصر : « إن آداب الأمم وفضائلها التى هى قوام مدنيتها مستمدة كلها من الدين ومستندة إليه وقائمة على أساسه ، وأن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العلم والعقل ، وإن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل لا بد أن تقع فى طور التحويل فى فوضى أدبية لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها .

* *

٤ - وسائل الإعلام :

تلعب وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون دوراً هاماً فى تشكيل معتقداتنا ، وتكوين اتجاهاتنا وقيمنا بوصفها مصدراً ملحاً ومستمراً من مصادر المعلومات .

وخطورة هذه الوسائل أنها لا تقدم فقط كماً ضخماً من المعلومات ، ولكنها تقدمها بصورة منتقاة مع تعليقات مدروسة قد تخلق اتجاهات وقيم مقصودة حتى ولو لم يكن المتلقى راغباً فيها .. بل الأكثر خطورة أن هذه الوسائل قد تخلق قيماً سلبية بشكل غير مقصود ، فقد أشارت بحوث عدة إلى أن مشاهد العنف فى التليفزيون تزيد من عدوانية المشاهدين بل قد تدفع بعض الشباب إلى الانحراف تقليداً لما يشاهدونه .

وهذه الأجهزة تخلق فى ذهن المشاهدين والقراء والمستمعين نماذج لنجوم وأبطال ينظر اليهم على أنهم قدوة .. فيحتذى الناس بسلوكياتهم ، ويعتبرونها مُثلاً وقيماً .

وفى المجتمعات التى تزيد فيها نسبة الأمية يلعب التليفزيون دوراً كبيراً فى تشكيل قيم ووجدان المشاهدين ، فالناس تجلس أمامه تستمع لما يلقى عليها ،

---

(١) « رجال مجاهدون » للأستاذ توفيق السبع ، نقلاً عن كتاب د . عبد الرحمن عميرة : « هذا هو الطريق » ص ٥٦

ومع الإلحاح يستقبل عقل المواطن هذه الأفكار وكأنها مسلّمات أو أشياء مقدسة ، وخصوصاً إذا جاءت على لسان مَن نعتبرهم نجوماً وقدوة ، وهذا بدوره يزرع فى النفوس قيماً جديدة أو يقضى على قيم قائمة مهما كانت متأصلة فى النفوس .

ومع ازدياد ثورة الاتصالات أصبح العالم فى حجم قرية صغيرة ، وأصبحت الأفكار والعادات والتقاليد والقيم تنتقل عبر الأجهزة وتخترق البيوت دون استئذان وتحدث آثارها فى النفوس دون موانع .

والآثار السلبية لثورة الاتصالات تقع على المجتمع الأقل تقدماً وهى فى الغالب تؤثر على القيم المتأصلة فى هذا المجتمع ، وتخلق قيماً جديدة مستوردة قد لا تقوم على أسس من دين أو عقيدة ، ولا عاصم من هذه الغزوات فهى تتسرب من الأبواب والنوافذ وتدخل حتى غرف النوم ، وليس هناك وسيلة للمناعة غير تلك التى يجب أن تكون موجودة داخل الفرد الذى يتعرض لكل هذه الموجات ، ولكل هذه النوافذ المفتوحة من التأثيرات المختلفة .

* *

٥ - مصادر أخرى للقيم :

هناك مصادر أخرى للقيم لا يمكن حصرها لأنها متنوعة ومتعددة وتجىء على رأسها العلاقات الاجتماعية .. فالمرء من خلال تعاملاته اليومية مع الأهل والأصدقاء والزملاء فى العمل والآخرين فى الأسواق والمواصلات والحياة اليومية يكتسب قيماً جديدة ، وتتأثر بعض القيم المتأصلة فيه بما يحدث فى المجتمع ، فالألفة مع الناس قد تولد الحب وهى فى بعض الأحيان تولد السأم والملل .. كذلك فإن الحياة فى الريف قد تخلق قيماً مثل الارتباط بالأرض ، والارتباط بالأهل وحب التناسل ، تختلف عن تلك الموجودة بالمدينة ، كما أن الحياة فى مجتمع صحراوى تخلق قيماً تختلف عن تلك السائدة فى المجتمعات الحضرية .

وقد تؤثر المواقف اليومية فى تشكيل شخصية الفرد واتجاهاته نحو مختلف الموضوعات ، وقد يكون هذا التأثير مباشراً أو غير مباشر تظهر آثاره على المدى الطويل .

يقول الأستاذ أحمد أمين [1] : « المادة لا تفنى ، وكذلك المعانى والعواطف والمشاعر والأفكار والأخيلة ، إنها تبقى أبداً تعمل عملها ، فكل مايلقاه الإنسان من يوم ولادته وكل ما يلقاه فى حياته يستقر فى قرارة نفسه ويسكن فى أعماق حسه سواء فى ذلك ما ذكر وما نسى ، وما لذّ له وما آلمه ، فهجرة الأب والأم يتلقاها ، وأحداث السرور والألم تتعاقب عليه ، كل ذلك يتراكم ويتجمع ويختلط ويمتزج ويتفاعل ، ثم يكون هذا المزج وهذا التفاعل أساساً لكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال نبيلة أو خسيسة .

وكل ذلك أيضاً هو السبب فى أن يكون الرجل عظيماً أو حقيراً أو قيماً أو تافهاً ، فكل ما يحيط بنا من أحداث فى الحياة وكل خبراتنا وتجاربنا ، وكل ما تتلقاه حواسنا يدور فى خلدنا . ويُكوِّن شخصياتنا » .

* * *

(١) أحمد أمين كتاب « حياتى » ص ٨٦

الإســـلام والقيـــم

● رسالة القيم :

لم تعرف البشرية على مرّ تاريخها ديناً كانت دعوته من ألفها إلى يائها مرتكزة على أساس من القيم النبيلة مثل الدين الإسلامى .

ولم يعرف التاريخ حضارة جسّدت القيم الإنسانية مثل الحضارة الإسلامية .

ولم يعرف الخلق منذ النشأة الأولى مجتمعاً تجلّت فيه القيم بأسمى معانيها مثل المجتمعات الإسلامية التى أخذت الشريعة الإسلامية قولاً وفعلاً .. والمتتبع لمراحل الدعوة الإسلامية يدرك بغير جهد أن رسالة الإسلام هى رسالة القيم السامية ، وأن دعوته بدأت بالقيم ، وانتشرت بالقيم ، وتغلغلت فى النفوس بما تحمله من القيم ، وحتى حينما حاربت فقد حاربت دفاعاً عن القيم وعلى أساس من القيم ، وجاء انتصارها انتصاراً للقيم الإنسانية .

وحين يُطلَق لفظ القيم فى المنهج الإسلامى يُقصد به القيم الإيجابية ، لأن القيم السلبية لا تتفق مع روح الإسلام ولا تتواءم مع دعوته ومبادئه السامية النبيلة ، ونسبة القيم إلى الإسلام فى المصطلح المتداول بين الكُتّاب « القيم الإسلامية » يجعل هذا المصطلح قاصراً على القيم الإنسانية التى ترقى بالإنسان وتساعد فى تقدمه .

والقيم الإسلامية بحكم توافقها مع النفس البشرية تلائم طبيعة الإنسان كفرد ، كما تنمى فى نفس الوقت مشاعره نحو المجتمع كعضو عامل فى مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه ، وهى ليست معانى مجردة وإنما قيم إيجابية ذات فاعلية فى واقع المجتمع ، وهى فوق ذلك تتصل بالإنسان فى صميم حياته وفى عمله وفى حركته فى الحياة .

والقيم الإسلامية تتناول مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، وهى قيم متكاملة لا يمكن فصلها ، فهى تتعاون وتتساند وتعمل فى إطار متكامل ، والأخذ ببعضها دون بعض لا يحقق النتائج المرجوة .

فلو نظرنا إلى قيمة سياسية مثل الشورى التى جعلها الإسلام أساس الحكم نجد أنها لا تؤتى ثمارها إلا فى إطار القيم الأخرى الاجتماعيه والاقتصادية .

فالشورى تتطلب الكفاءة فيمن يرشح نفسه لتحمل المسئولية والتمثيل ، وهذا يقتضى توفر أمانة المسئولية سواء فى الجهات التى تتولى الترشيح أو فى الشخص الذى يرشح نفسه .. فإذا لم تكن هناك أمانة المسئولية فسيتقدم لتمثيل الأمة مَن ليسوا أهلاً للمسئولية ومَن لا يحسنون تقدير أعبائها .

وأمانة المسئولية تفرض على مَن يرشح نفسه أن لا يحاول اختلاس ثقة الناخبين بالكذب والبهتان أو شراء ذمتهم بالمال أو إغرائهم بالوعود البرّاقة .

والشورى تفرض على الناخبين أن يحسنوا الاختيار ، وأن يتجردوا من مشاعر القرابة والعاطفة ، ويعصموا أنفسهم من التأثر بهوى أو حقد أو منفعة شخصية .. إنهم فى ساعة الاختيار يقررون مصير أمة فعليهم أن يلتزموا بالعدل وأن يجتهدوا فى استجلاء الحقيقة .

والشورى أيضاً بما تقتضيه من مبايعة وانتخاب وترشيح وإخلاص فى الرأى وصدق فى العمل تتطلب أن يتحرر الإنسان من أشكال العبودية المختلفة .. فلا تدفعه الحاجة المادية أو الفقر الاجتماعى إلى المتاجرة بصوته أو تقديمه لمن يدفع ، وهنا تصدق مقولة : « إنّ حرية رغيف الخبز ضمان لا بد منه لحرية الانتخاب » .

هذه الحرية لا يمكن أن تتوافر فى مجتمع تتملك فيه قوى صغيرة معظم الثروة ، بينما السواد الأعظم يعيش على ما تسمح به هذه القوى من فتات .. لأن هذا الوضع يخلق مناخاً احتكارياً تتم فيه السيطرة على أقوات الشعب وتوجيهها سياسياً على غير إرادتها .

وهكذا لن تكون الشورى كقيمة أساسية ذات مردود إيجابى فى المجتمع ما لم تتضافر معها قيم الحق والعدل والأمانة والحرية .. وغيرها من قيم فى منظومة متكاملة تعمل كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

والقيم الإسلامية تتناول مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

* * *

obeikandl.com

من الناحية السياسية

١ - تكريم الإسلام للإنسان :

من أول القيم التى حرص الإسلام على غرسها فى نفوس البَشر أن الإنسان كائن مميز عن غيره من سائر المخلوقات .. مميز بالفعل ، ومميز بالاستخلاف فى الأرض ، ومميز بالأمانة التى حملها وهى أمانة الاختيار .... ومميز بأشياء أخرى كثيرة . يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) . « صدق الله العظيم » .

تكريم وتفضيل من الله على سائر المخلوقات لبنى البَشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وألسنتهم ، لا فرق فى ذلك بين أبيض وأسود ولا عربى أو عجمى .. تفضيل منبعه الآدمية والإنسانية ليس إلا ..

وتكريم للإنسان باختياره خليفة لله فى الأرض : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . « صدق الله العظيم » .

وتكريم للإنسان باختصاصه بأمانة الاختيار ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٣)

ارتضت كل الخلائق التسيير الإلهى مبدأ ، وأشفقت على نفسها من حمل أمانة الاختيار : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ

---

(١) الإسراء : ٧٠ (٢) البقرة : ٣٠ (٣) الأحزاب : ٧٢

وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١) .

أما الإنسان فقد حمل هذه الأمانة رغم قسوتها ، وارتضى بأن يعيش التجربة فيصيب ويخطئ ، ويهتدى ويضل ، ويطيع ويعصى .. ويعمل الفعل .. وهو فى هذا قد جلب على نفسه المشقة والتعب لكنه استحق التكريم لأنه المخلوق الوحيد الذى حمل الأمانة .

ولقد كافأه الله تعالى على هذا بأن سخّر له كل المخلوقات الأخرى وجعلها تعمل بإمرته ولخدمته ، ويفصّل القرآن الكريم هذا المعنى فى سورة النحل الأيات (من ٥ إلى ١٨) تفصيلاً دقيقاً وشاملاً ..

يقول تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن

(١) النحل : ٤٩ - ٥٠

فَضْله وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَات ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) « صدق الله العظيم » .

وحينما يؤكد الإسلام على قضية تكريم الإنسان فإنه يهدف إلى الإشارة إلى أن أول الحقوق السياسية للإنسان الحفاظ على كرامته الإنسانية ومعاملته بما يليق بمكانته كخليفة لله فى الأرض .

* *

٢ - الحرية .. والخروج من دوائر العبودية لغير الله :

الإنسان كائن حر ، ولد حراً لكى يمارس وجوده ككائن خلاّق مبدع ، وحين رفض الإنسان أن يكون جزءاً من الطبيعة كباقى الكائنات ، واستقل عنها واختار لنفسه الاستقلالية بإعمال العقل والاختيار .. فإنه تميز عن كل الكائنات بل وأصبح سيداً لها حين سخّرها الله لخدمته ، وهو فى هذا خرج من كل دوائر العبودية لغير الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

ومما هو جدير بالذكر أن العبودية لله تعالى هى أسمى درجات الحرية - لأن العبودية لله تحمى الإنسان من كافة أشكال العبودية الأخرى (عبودية النفس وعبودية الحكام وعبودية الرؤساء وعبودية الآخرين) .

---

(١) النحل : ٥ - ١٨ (٢) الجاثية : ١٢ - ١٣ .

والإنسان حين يؤمن بعبوديته لله يطمئن إلى حياته وإلى رزقه وإلى مستقبله ، فينطلق فى عمله دون خوف من جاه أو سلطان ، أو قوى متسلطة تذله وتوقف حركته .

والحرية الحقيقية تعنى حرية الرأى بأن يكون الإنسان قادراً على التعبير عن نفسه وعن حاجاته ومشكلاته وآماله وتطلعاته : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١) .

وحرية التفكير والتأمل فى خلق الله وتدبر آياته : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

وحرية الحركة والسير فى الأرض والاستمتاع بخيراتها : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ (٣) .

وحرية التدين : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ﴾ (٤) .

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (٥) .

وإنه لمما هو جدير بالذكر فى هذا الشأن أن عجوزاً نصرانية قابلت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لحاجة لها عنده ، وبعد أن أداها دعاها إلى الإسلام فامتنعت ، فخشى عمر أن يكون فى كلامه إكراه لها فطلب المغفرة من الله قائلاً : اللهم إنى لم أكرهها .. اللهم إنى لم أكرهها .

وحرية الفعل : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ (٦)

وحرية ممارسة الحقوق السياسية ونقد الحكام ...

---

(١) رواه أبو داود والترمذى (٢) العنكبوت : ٢٠ (٣) النساء : ١٠٠

(٤) البقرة : ٢٥٦ (٥) الكافرون : ٦ (٦) الإسراء : ٨٤

ولقد فتح الخلفاء الراشدون هذا الباب على مصراعيه وكانوا يقبلون النقد من كل مخالفيهم ويستمعون إليهم .

لقد وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه يدعو الناس لعدم المغالاة فى المهور ووضعَ حداً أعلى للمهور ، فوقفت امرأة تعارضه وتقول : ليس هذا لك يا أمير المؤمنين لقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ (١) « صدق الله العظيم » .

فما كان من عمر إلا تقدير الرأى الآخر وقبوله بصدر رحب قائلاً : « كل الناس يعلم القرآن إلا أنت يا عمر » .

ولقد كان رضى الله عنه يقبل الاتهام أحياناً ويناقشه حتى يُظهر الله الحق ، من ذلك أنه جاءته غنائم فيها ثياب ومن بينها ثوب تميز بجودته فأعطاه أحد الشبان فظن سعد بن أبى وقاص ذلك محاباة فحلف ليضربن رأس عمر بثوبه الذى وزع عليه وقال لأمير المؤمنين : تكسونى البرد وتكسو ابن أخى بُرْداً أفضل منه ، فقال عمر : يا أبا إسحاق ؛ إنى كرهت أن أعطيه أحدكم فيغضب الآخرون فأعطيته فتىً نشأ نشأة حسنة لا يتوهم فيه أحد أنى أفضِّله عليكم ، فقال سعد : لقد حلفتُ أن أضرب بالبرد الذى أعطيتنى رأسك ، فمال عمر برأسه وقال : رأسى عندك يا أبا إسحاق وليرفق الشيخ بالشيخ ، فضرب رأسه بالبرد .

ولقد وصل حد النقد للحكام إلى أن يقف أحد الرعية فى وجه أمير المؤمنين ليقول له : اتق الله يا عمر . فلما اعترض آخر على هذه المقولة قال عمر : دعه فليقلها ، لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم .

---

(١) النساء : ٢٠

والحرية تعنى إطلاق ملكات الانسان وتحريره من كل صور الاستغلال .. والحرية حق أصيل للإنسان فهى ليست منّة من أحد ، وليست هبة من حاكم أو غيره .. ولعل فى المقولة المأثورة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب تأكيداً لهذا المعنى حيث يقول مخاطباً « عمرو بن العاص » حينما اعتدى ابنه على واحد من الرعية فى مصر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

* *

٣ - العدل ورفض الظلم :

قيمة ثابتة من قيم الحياة التى حرص الإسلام على تأكيدها بكل وسائل القول والفعل .

* بصيغة الأمر القاطع فى المعاملات العامة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ (١) .

* وبصيغة الأمر القاطع فى الحكم : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ (٢) .

* وبصيغة النهى عن غير العدل خوفاً من جاه أو سلطان : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٣) .

* وبصيغة النصح : « يا بنى آدم إنّى حرّمتُ الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا » (٤) .

* وبصيغة الاستنكار لهؤلاء الذين ارتضوا لأنفسهم الظلم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٩٠ (٢) النساء : ٥٨ (٣) المائدة : ٨

(٤) حديث قدسى . (٥) النساء : ٩٧

* وبصيغة التخويف من عواقب الظلم : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ (١) .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ (٢) .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (٤) .

ودعوة الإسلام إلى العدل ورفض الظلم تدفع المسلمين إلى القتال من أجل المظلومين : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ (٥) .

واللّه سبحانه وتعالى يعتبر العدالة بين الناس من أقرب القربات إلى اللّه .. وهى طريق الزلفى إليه ، يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

ومن الآثار الإسلامية : « عن سعيد بن المسيب رضى اللّه عنه أن مسلماً ويهودياً اختصما إلى عمر رضى اللّه عنه ، فرأى الحق لليهودى فقضى له عمر به ، فقال له اليهودى : واللّه لقد قضيتَ بالحق ، قال : وما يدريك ؟ قال اليهودى : واللّه إنّا نجد فى التوراة : « ليس قاضياً يقضى بالحق إلا كان عن يمنيه مَلَك وعن شماله مَلَك يسددانه ويوفقانه للحق ما دام مع الحق ، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه » (٧) .

* *

(١) الفرقان : ١٩ (٢) يونس : ١٣ (٣) الشعراء ٢٢٧
(٤) الكهف : ٢٩ (٥) النساء : ٧٥ (٦) المائدة : ٨
(٧) رواه مالك - الترغيب : ٣/٥٥

٤ - المســـاواة :

المساواة مبدأ منزّل من الله سبحانه وتعالى ليؤكد أن الطبيعة الإنسانية واحدة ومن ثَمّ يجب أن تكون المعاملة الإنسانية واحدة :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (١) .

وجعل القرآن الكريم اختلاف الناس للتعارف لا للتباغض والتنازع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

ويؤكد الرسول عليه السلام حقيقة المساواة بين البَشر أجمعين فيقول : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين عربى وأعجمى أو أبيض وأسود إلا بالتقوى » (٣) .

ولقد حارب الإسلام التفرقة العنصرية والعصبية الجاهلية فقال عليه السلام : « ليس منا مَن دعا إلى عصبية » (٤) .

وقال مخاطباً عشيرته بنى هاشم : « يا معشر بنى هاشم : لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئون بالأنساب » (٥) .

وحين بلغ النبى أن أحد أصحابه عيَّر آخر بأبيه قال قولته المشهورة : « إنك امرؤ فيك جاهلية » (٦) .

---

(١) النساء : ١ (٢) الحجرات : ١٣

(٣) رواه ابن كثير فى تفسيره بألفاظ متقاربة - الجزء الثامن .

(٤) رواه أبو داود ، الجامع الصحيح - الجزء الثالث - باب : الإيمان .

(٥) رواه عمران بن حصين ، الإحياء - الجزء الثانى - كتاب الحلال والحرام ص . ١٤

(٦) رواه المعرور بن سويد - رياض الصالحين ، باب : فضل الإحسان إلى المملوك ص . ٤٨ ، وصحيح مسلم ، باب : إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس .

ويخاطب الرسول عليه السلام الإنسانية كلها محذراً من مغبة التعصب فيقول: « كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان » (١) .

* *

٥ - الشـــورى :

الشورى أصل من أصول الحكم الإسلامى ، تقررت بالقرآن الكريم والسُنَّة النبوية ، وعاشت بالتطبيق الإسلامى فى مختلف العصور .

قال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) .

أما السُنَّة النبوية فهى تؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام التزم بمبدأ الشورى منهجاً وسلوكاً ..

وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قوله : « لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ » .

ومن المعروف تاريخياً أن الرسول ﷺ قد التزم برأى أصحابه فى غزوة بدر ، وحين اختلف - عليه الصلاة والسلام - فى الرأى مع أصحابه فى غزوة أُحُد فإنه نزل على رأى الصحابه والتزم به .

أما الخليفة الأول للمسلمين أبو بكر رضى الله عنه ، فقد ضرب مثلاً أعلى فى الشورى ومشاركته أصحابه فى اتخاذ القرارات ، فحينما رأى قتال مَن

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره : ٤ / ٢١٧ عن البزاز فى مسنده عن حذيفة .

(٢) آل عمران : ١٥٩ (٣) الشورى : ٣٨

سُمُّوا فيما بعد بالمرتدين .. جمع أصحابه وشاركهم فى اتخاذ القرار ، ولم يدخل فى هذه الحروب إلا بعد اجتماع الصحابة واقتناعهم برأيه وإقرارهم بهذا الرأى .

وعلى هذا النهج سار عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شئون الدولة .. ومن أمثلة ذلك أنه حينما رأى عدم تقسيم أرض العراق بين الفاتحين وعارضه الصحابة فى ذلك ، أخذ يناقشهم حتى اقتنعوا برأيه وأقروه ولم يبدأ تنفيذه إلا بعد موافقة شبه إجماعية من كبار الصحابة رضى الله عنهم .

وهكذا كان شأن حكام المسلمين فى مختلف عصور الدولة الإسلامية ، وهكذا أرسى الإسلام مبدأ الجَماعية فى الرأى والمشاركة فى اتخاذ القرارات .

وفى هذا يقول الدكتور منصور أحمد منصور [1] : « كان نظام الشورى فى الإسلام ركناً جوهرياً وركيزة من الركائز الإسلامية المتطورة التى يتكون منها نظام الإدارة .. فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يملك السلطة العليا فى حسم المسائل والمشكلات العامة ، ومع ذلك كان يستخدم مبدأ الشورى عن طريق المشاركة من جانب الصحابة فى كافة الأمور الهامة التى تؤثر على فاعلية الحركة الإسلامية وامتدادها وقوتها على البقاء . وعلى الأخص صياغة القوانين والقيادة الإدارية والنظم الاجتماعية » .

ولقد سار مبدأ الشورى مسيرة ناجحة عبر سنوات طوال .. ففى عهد الخلفاء الراشدين كان هذا المبدأ هو سفينة النجاة التى قادت الأحداث الإسلاميه إلى بر الأمان والاستقرار والانتصارات ، وفى الأوقات التى التزم فيها حكام المسلمين بهذا المبدأ تحققت لهم السيادة والحضارة والرقى ..

ولقد كان عصر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه خير شاهد على ذلك ، أما الأوقات التى استبد فيها الحكام برأيهم وساروا على أهوائهم فقد كانت هى فترات الانتكاسات فى التاريخ الإسلامى .. ولعل كل هذا يؤكد أن مبدأ الشورى هو الركيزة الأساسية لقيادة الدولة الإسلامية .

* * *

(١) انظر : د . منصور أحمد منصور « قراءة فى تنمية الموارد البَشرية » - المقدمة .

من الناحية الاجتماعية

١ - التكافل الاجتماعى :

المجتمع الإسلامى مجتمع متعاون ومتكافل يعيش كوحدة واحدة ويعمل كجسد واحد .. يقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسهر » (١) .

ويقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (٢) .

ويقول : « أيّما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » (٣) .

ويقول : « مَن كان معه فضل ظهر فليعد به على مَن لا ظهر له ، ومَن كان له فضل زاد فليعد به على مَن لا زاد له » (٤) .

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما آمن بى مَن بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » (٥) .

والقرآن يدفع الناس دفعاً إلى التكافل الاجتماعى .. ويفرض على الأغنياء اقتطاع جزء من أموالهم لرعاية الفقراء .

---

(١) متفق عليه - أنظر رياض الصالحين ص ١٢١

(٢) متفق عليه - أنظر رياض الصالحين ص ١٢١

(٣) عرصة ، بفتح العين والصاد هى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء - والحديث رواه الحاكم .

(٤) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى .

(٥) رواه الطبرانى والبزار - الترغيب والترهيب : ٣٥٨/٣

يقول تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣) .

بل إن القرآن يتوعّد مَن يتجاهلون حق المجتمع عليهم ويعتبرهم خارجين عن الدين .. يقول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٤) .

* *

٢ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

قيمة إسلامية كثر التنبيه اليها فى القرآن والسُنّة .. قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٥) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٦) .

---

(١) الإسراء : ٢٦ (٢) النساء : ٣٦ (٣) البقرة : ١٧٧

(٤) الماعون : ١ - ٣ (٥) التوبة : ٧١ (٦) سورة العصر كاملة .

وعن تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة » ، قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [١] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحقرن أحدكم نفسه » ، قالوا : يا رسول الله ؛ كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : « يرى أن عليه مقالاً ثم لا يقول به ، فيقول الله عَزَّ وجَلَّ يوم القيامة : ما منعك أن تقول فىّ كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى » [٢] .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العُسر واليُسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كان لا نخاف فى الله لومة لائم » [٣] .

* *

٣ - إيثار المروءة والعفو :

بالرغم من تشريع العقوبات فى الإسلام وشدتها إلا أنه يدعو دعوة قوية إلى العفو وكرم التجاوز :

ويقول تعالى : ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [٤] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٥] .

ويقول جَلَّ علاه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [٦] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم - الترغيب : ٧/٤
(٢) رواه ابن ماجه - الترغيب : ٦/٤
(٣) رواه البخارى ومسلم - الترغيب : ٣/٤
(٤) البقرة : ١٠٩
(٥) البقرة : ٢٣٧
(٦) الاعراف : ١٩٩

وسماحة الإسلام فى هذا المجال لا تقتصر على معاملة المسلمين بعضهم مع بعض بل تمتد إلى غير المسلمين .

يقول تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

ولقد سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » (٢) .

* * *

(١) الممتحنة : ٨

(٢) رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

obeikandl.com

من الناحية الاقتصادية

١ - احترام المِلكية الخاصة : باعتبارها حق غير مطلق يجب أن يستهدف لمصلحة الجماعة دون الإضرار بمصلحة الغير نزولاً على المبدأ الإسلامى : « لا ضرر ولا ضرار » ، وحق المِلكية بهذا المفهوم نابع من الاعتقاد الراسخ بأن المال مال اللّه وأننا مُستَخلفون عليه .

٢ - إمكان قيام المِلكية العامة : ويتحدد نطاقها فى ضوء الظروف التى يحددها الرسول فى حديثه : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » .

٣ - مبدأ المشروعية : شرط النشاط فى النظام الإسلامى أنه يقع فى دائرة ما هو مسموح به وغير محرَّم شرعاً - وهذا المبدأ يحدد ما يمكن إنتاجه وما لا يمكن إنتاجه ، وما يمكن إشباعه وما لا يمكن إشباعه .

٤ - الاعتماد على حريات الأفراد وعلى سُلطة الدولة : فى مقابل حريات الأفراد فإنَّ من حق الدولة أن تتدخل للمحافظة على مصلحة الجماعة .

مثال ذلك : التدخل لمنع الاستغلال ، لمنع الاحتكار ، لمنع تجريف الأرض ، لمنع الضرر بصفه عامة .. وقد اتخذ الإسلام لذلك نظام الحسبة التى تولاها الرسول بنفسه ومن بعده الخلفاء الراشدون ، وصارت بعد ذلك نظاماً سار عليه الولاة والحكام .

٥ - حماية المصلحة العامة : نزولاً على مبدأ حماية مصلحة الجماعة يقوم النظام المالى فى الإسلام بوظيفتين :

الأولى : تغطية نفقات المرافق العامة .

الثانية : إعادة توزيع الثروة لصالح الفقراء .

وتحقيقاً لهذا فرضت الزكاة ، ووضع نظام ضريبى ملائم ، وأنشأ بيت المال ، وضمن لكل مَن يقيم فى دار الإسلام حد الكفاية .

وإذا راجعنا تاريخ النظام الاقتصادى نجد أنه قد مرّ بتطورات كثيرة استجابة للضرورات فهو ليس نظام جامد أو ثابت ، وإنما يمتلك فى تكوينه مقومات التطور والرقى ، ويواكب روح العصر فى الوقت الذى يحافظ فيه على أصالته ، وقيم المجتمع الذى يعمل فيه .. وهذا نابع من قدرته على استلهام القيم الإسلامية التى ترفض الجمود والتخلف .

ونذكّر - على سبيل المثال - بالتطورات التى مرّت بالضرائب وخاصة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فهو قد أعاد تنظيم الضرائب التى كانت مفروضة ، كما استخدم ضرائب أخرى لم يأت بها النص القرآنى أو السُنّة النبوية ... مثال ذلك : ضريبة الخراج عن البلاد المفتوحة ، وضريبة العشور على أموال التجارة المتنقلة بين أقاليم الدولة الإسلامية .. وهذا دليل على مرونة النظام وعلى المبادىء والقيم الإسلامية التى لا تقف حائلاً فى وجه التطور .

* * *

النموذج الأسمى للقيم

قضت الحكمة الإلهية أن يكون الرجل الذى تحمَّل مسئولية الدعوة للإسلام نموذجاً مجسداً للقيم ، فقد كان صلى اللّه عليه وسلم صاحب منزلة سامية بين قومه قبل بعثته ، وكان ملقباً لديهم بـ « الصادق الأمين » ، وكان محبوباً من فقرائهم وأغنيائهم ، وكانوا لا يرتابون فى كلامه إذا قال ، وفى سلوكه إذا فعل ، وفى أخلاقه إذا تعامل ، وفى إخلاصه إذا ما اعتُمِد عليه فى عمل .

لقد حفظه اللّه من جميع مظاهر الانحراف التى لا تتفق مع مقتضيات الرسالة النبيلة ، وأحاطه بسياج من القيم الربانية كانت عاصماً له فيما تتطلع إليه النفوس البَشرية من شهوات وملذّات .

يقول عليه السلام : « ما هممتُ بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول اللّه بينه وبينى ، ثم ما هممتُ به حتى أكرمنى اللّه بالرسالة ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر كما يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل ، فخرجتُ حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعتُ عزفاً فقلت : ما هذا ؟ قالوا : عُرس ، فجلست أسمع ، فضرب اللّه على أذنى فنمت ، فما أيقظنى غير حر الشمس ، فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أولَ ليلة ، ثم ما هممتُ بعده بسوء » (١) .

يجسد القرآن الكريم هذه الحقيقة فيقول تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

---

(١) رواه الطبرانى من حديث عمار بن ياسر ، ورواه الحاكم عن علىّ بن أبى طالب .

(٢) آل عمران : ١٦٤

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير هذه الآية : « جاء ختام هذه الفقرة بهذه الحقيقة الكبيرة ، حقيقة الرسول ﷺ وقيمتها الذاتية ، وعظيم المنّة الإلهية بها ودورها فى إرشاد هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادتها ونقلها من الضلال المبين إلى العلم والحكمة والطهارة » (١) .

وفى تفسير أبى السعود لقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يقول : « أى من نسبهم أو جنسهم عربياً مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله فى الصدق والأمانة » (٢) .

ويقول « الفخر الرازى » فى ذلك أيضاً : « إنه - عليه السلام - ولد فى بلدهم ، ونشأ فيما بينهم ، وكانوا عارفين بأحواله مطلعين على جميع أفعاله وأقواله ، فما شاهدوا منه من أول عمره إلى آخره إلا الصدق والعفاف وعدم الالتفات إلى الدنيا والبُعد عن الكذب والملازمة على الصدق » (٣) .

وتوجز السيدة خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) فى كلمات بليغة بعض القيم التى كان يتحلى بها الرسول ﷺ قبل البعثة فتقول له حين يخبرها بخبر الوحى قائلاً : « لقد خشيتُ على نفسى » تقول : « كلا ، واللّه ما يخزيك اللّه أبداً : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة » (٤) .

لهذا لم يكن غريباً على هذا الرجل حين جاءه الأمر الإلهى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥) . أن يقف على جبل الصفا ليقول لقومه : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى ، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى » ؟

---

(١) جامع التفاسير ص ٣٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٤٧ .
(٣) نفس المرجع ص ٣٠٤٣ .
(٤) انظر : خلف الحسينى « البيان فى منهاج القرآن » الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ ص ٢١٨
(٥) الحجر : ٩٤

لم يكن بين القوم وبين أحد مناوشات أو حروب فى تلك الأيام ، ولم يكن هناك أدنى تفكير فى غزو قادم من جهة ما ، لذلك كان غريباً أن يصدقوا أن خيلاً بالوادى ستغير عليهم ، لكنهم من منطلق الثقة فيه ، وإلايمان بأنه لا يكذب - صدَّقوه - قالوا : « نعم ، ما جرَّبنا عليك كذباً قط »

وكان جدير بقوم وصلت بهم الثقة فى محمد إلى هذه الدرجة أن يصدِّقوا دعوته ، ويتبعوا رسالته ، لكن النفس الأمَّارة بالسوء ، والخوف على السلطة والجاه والسلطان ، والحقد على اختيار السماء ، كل ذلك حال بينهم وبين الحق ، ودفعهم إلى العناد والمكابرة ، إلا مَن هدى اللّه .

* *

● البداية أساسها القيم :

تلك كانت البداية .. أساسها القيم .. وكان بوسع الرسول ﷺ أن يكسب الكثير منذ اللحظة الأولى بإغرائهم بدنيا أو جاه أو سلطان يعوِّضهم عما قد يفقدونه فى مراحل الدعوة الأولى ، كان يستطيع أن يمنِّيهم بعرش كسرى وكنوزه ، وذهب الفُرس وثرواتهم ، وكانت تلك الأمنية ستشجع أصحاب المطامع الدنيوية والمظاهر السلطوية على الدخول فى الإسلام ، لكنه - صلى اللّه عليه وسلم - بقيمه المتأصلة فيه ، وبأدبه الربَّانى ، كان يريد إيماناً خالصاً لوجه اللّه تعالى منزهاً عن الأطماع والشهوات .

ذهب وفد من قريش يفاوض الرسول ﷺ فى ترك الدعوة ويغريه بالمُلك والمال والشرف والسؤدد ، فلما رفض عليه السلام كل الإغراءات قالوا له : « إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فأنت قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليُسيِّر عنا هذه الجبال التى قد ضيَّقت علينا ، وليُفجِّر لنا أنهاراً كأنهار الشام

والعراق ، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا ، وليكن فيما بُعث لنا منهم « قُصَّى بن كلاب » فإنه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول : أحق هو أم باطل ؟

وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإن صنعتَ ما سألناك صدَّقناك ، وعرفنا منزلتك من اللّه وأنه بعثك رسولاً كما تقول » (١) .

لو كان الرسول عليه السلام يسعى لنصر سريع ، ودعاية تضفى عليه العظمة والهيبة والجلال ، لسارع فدعا اللّه بما طلب قومه ، وكان اللّه سيجيبه لأنه - صلى اللّه عليه وسلم - لا يقل منزلة عن عيسى عليه السلام الذى طلب منه قومه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، فدعا ربه ، فاستجاب اللّه دعوته ، وكانت قصة هذه المائدة من عبر التاريخ التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

كان عيسى مرسلاً لقومه خاصة ، وكان هدفه النهائى أن يؤمنوا برسالته بمعجزة أو بغير معجزة ، فاستجاب لقومه لعل قلوبهم تلين لدعوته ، لكن محمداً ﷺ كان يدرك أنه مرسل للناس كافة ، وكان هدفه أن يكون إيمان الناس

---

(١) رواه الطبرى وابن كثير وغيرهما .

(٢) المائدة : ١١٢ - ١١٥

بقناعة وحب ، وليس بدعاية وإبهار ، لأنه لن يستطيع أن يقدم المعجزات فى كل الأرجاء وفى كل الأزمان .. والإسلام - كما أراد الله له - لن ينتشر بالخوارق والمعجزات ، ولكن بما يحمل من قيم ومُثُل وسعادة للبَشرية فى الدنيا والآخرة .. لكل هذا حسم الرسول عليه السلام هذا الموقف حسماً رائعاً حينما قال : « ما أنا بفاعل .. وما أنا بالذى يسأل ربه هذا »

ويؤيد الله سبحانه وتعالى نبيه فى هذا الموقف فينزل القرآن الكريم ليُثبِّت فؤاد النبى عليه السلام ويدعم موقفه .

يقول تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (١) .

* *

● درس تاريخى فى القيم :

روى ابن إسحاق عن الزهرى ، أن النبى ﷺ أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عَزَّ وجَلَّ وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم - يقال له بحيرة بن فراس - : والله لو أنى اخترت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب . ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على مَن خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » . فقال له بحيرة : « أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك » (٢) .

---

(١) الإسراء : ٩٠ - ٩٣ (٢) انظر سيرة ابن هشام : ٤٢٥/١

لو كان عليه السلام رجل سياسة أو دنيا لاعتبرها صفقة رابحة ، وعدّ مستقبلى لن يكلفه شيئاً فى مقابل أتباع كثيرين ومؤيدين لهم قوتهم ونفوذهم وسلطانهم .. ولكن لأنه رجل قيم ومُثُل فقد انتصر فى هذا الموقف بقيمه ومُثُله ، وحفظ له التاريخ هذا الدرس الذى لقنه للبشرية فى أولى مراحل دعوته .

* *

● لا تفريط ولا مساومة فى القيم :

روى ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة من تبوك فى شهر رمضان ، وفى ذلك الشهر قدم عليه وفد ثقيف يرأسه « كنانة بن عبد ياليل » وأنزلهم الرسول فى المسجد وبنى لهم خياماً لهم لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صَلُّوا ، ومكث الوفد أياماً عديدة يختلفون إلى رسول الله ويختلف إليهم وهو يدعوهم إلى الإسلام .. وأخيراً دخل الإسلام أفئدتهم ، لكن كنانة ابن عبد ياليل قال لرسول الله ﷺ : أفرأيت الزنى ؟ فإنّا قوم نغترب ولا بد لنا منه ، قال : « هو عليكم حرام فإن الله يقول : ﴿ وَلا تَقْرَبُواْ الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ » (١) .

قالوا : أفرأيت الربا ؟ فإنه أموالنا كلها ...

قال : « لكم رؤوس أموالكم . إنّ الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ » (٢) .

قالوا : أفرأيت الخمر ؟ فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منه ...

قال : « إنّ الله قد حرّمها » .. وقرأ آية تحريم الخمر .

قال ابن إسحاق : وسألوه أيضاً أن يضع عنهم الصلاة .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا خير فى دين بلا صلاة » .

---

(١) الإسراء : ٣٢ (٢) البقرة : ٢٧٨

فخلا بعضهم إلى بعض يتشاورون فى الأمر ، ثم عادوا إلى رسول الله وقد خضعوا لذلك كله لكنهم سألوه أن يدع لهم وثنهم الذى كانوا يعبدونه - اللات - ثلاث سنين لا يهدمها ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها إلى أى أجل .

فقالوا لرسول الله : فتول أنت هدمها ، أما نحن فلن نهدمها أبداً .

فقال لهم : « سأبعث لكم مَن يكفيكم ذلك » .

ثم أستأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم وأكرمهم وحيّاهم وأمّر عليهم عثمان ابن العاص لما رأى من حرصه على الإسلام .

وبعث رسول الله ﷺ وفداً على أثرهم أمّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة ابن شعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، فعمدوا إلى اللات فهدموها وخرجت نساء ثقيف حاسرات يبكين عليها ويرثينها ، وكلما ضربها المغيرة بفأسه قال أبو سفيان : وآها لك .. آها لك .

قال ابن سعد فى طبقاته يروى عن المغيرة رضى الله عنه : « فدخلت ثقيف فى الإسلام فلا أعلم قوماً من بنى العرب بنى أب ، ولا قبيلة كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم » [1] .

وكان هذا نصراً من انتصارات الإسلام التى تحققت بالقيم ، ومن أجل القيم ، وإيماناً بالقيم .. ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم فرّط فى قيمة من قيم الإسلام النبيلة لفتح ذلك الباب أمام أصحاب الإيمان المزعزع للتفريط فى كل القيم استناداً إلى أن الرسول فعل ، لكن الإلهام الربانى للرسول جعل هذه الواقعة درساً تاريخياً للأجيال المتوالية .

* * *

(١) انظر طبقات ابن سعد : ٧٨/٢

الهجرة وانتصار القيم

استمر الإسلام ينتصر بالقيم فى داخل مكة وخارجها ، ومن خلال الرسول أو من خلال أتباعه الذين قُدِّر لهم أن يحملوا لواء دعوته .

فى أول هجرة للإسلام خرج مجموعة من المسلمين فارين بدينهم مخافة الفتنة ، فأرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى ملك الحبشة وحاشيته وبطارقته ، يحملان هدايا قيِّمة بُغية إعادة هؤلاء المهاجرين .. لكن النجاشى طلب أن يسمع إلى هؤلاء المهاجرين أولاً ، فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم .. ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من الملل ؟؟

فكان الذى كلَّمه جعفر بن أبى طالب فقال : « أيها الملك .. كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته ، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، ونهانا عن الفواحش ، فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعدا علينا قومنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على مَن سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندك » .

وقرأ جعفر على النجاشى صدراً من سورة مريم فبكى الملك حتى اخضلت

لحيته ثم قال لهم : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت إلى رسولا قريش قائلاً : « انطلقا فلا واللّهِ لا أسلمهم إليكما ولا يُكَادون » [1] .

صدق الحديث ، أداء الامانة ، صلة الرحم ، النهى عن الفواحش ، تلك كانت بعض قيم الإسلام التى انتصر بها فى هذا الموقف على أرض الحبشة والتى جعلت النجاشى وأتباعه يرفضون الهدايا القيِّمة ويتمسكون بهؤلاء المستضعفين ويسمحون لهم بالإقامة بينهم ونشر دعوتهم كانتصار جديد للقيم الإسلامية .

* * *

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٣٣٠

obeikandl.com

بيعة القيم

القيم التى جذبت فقراء مكة للإسلام ، والتى جذبت ملك الحبشة لهذا الدين القويم ، هى نفس القيم التى جذبت أهل المدينة لمبايعة إيمانية مع الرسول فى مستهل الدعوة الإسلامية والتى عُرفت ببيعة العقبة الكبرى .

يروى عبادة بن الصامت أحد رجال المدينة خبر هذه البيعة فيقول : « كنا اثنى عشر رجلاً ، فقال لنا رسول اللّه ﷺ : « تعالوا بايعونى على أن لا تشركوا باللّه شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفَّى منكم فأجره على اللّه ، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فستره اللّه فأمره إلى اللّه إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه » ، قال عبادة بن الصامت : فبايعناه على ذلك » [١] .

لا تشركوا ، لا تسرقوا ،لا تزنوا ، لا تقتلوا أولادكم ، لا تأتوا ببهتان ..

قيم عظيمة بايع عليها النبى ﷺ وفد المدينة ليزرعوها فى أهلها عند عودتهم ، وهى فى نفس الوقت تكليفات شاقة تخالف تلك التى درجوا عليها فى الجاهلية .. فالزنا ، وقتل البنات ، وشرب الخمر ، كانت عادات متأصلة قبل الإسلام ، وكان النبى يدرك أن ترك هذه العادات صعب على نفوس مَن تعوَّدوها ، وأن إجبارهم على تركها منذ البداية قد يعطل الاستجابة السريعة للدعوة ، وخصوصاً من قِبَل أصحاب النفوذ والسلطان ، لكنه - عليه السلام - لم يكن ليهادن فى حق من حقوق اللّه ، ولم يكن ليتنازل عن قيمة سامية فى مقابل نصر سريع

---

(١) انظر : صحيح البخارى - كتاب : أحاديث الأنبياء - باب : وفود الأنصار وبيعة العقبة .

أو كسب وقتى .. لهذا كانت البيعة الأولى هى بيعة القيم التى كانت - كما يقول « ابن القيم » - المنطلق للمد الإسلامى فى أرجاء الأرض كلها .

يعبر الأستاذ محمد سعيد البوطى فى كتابه « فقه السيرة » عما احتوته بيعة العقبة من قيم نبيلة فيقول : « فى بيعة العقبة الأولى كان قد تم إسلام عدد كبير من كبار أهل المدينة ، فكيف كانت صورة إسلامهم ؟ وما هى حدود مسئولياتهم التى حمّلهم الإسلام إياها ؟ لم يكن إسلامهم مجرد نطق بالشهادتين ، بل كان إسلامهم هو الجزم القلبى والنطق اللسانى بها ، ثم التزاماً للبيعة التى أخذها رسول اللّه ﷺ : أن ينصبغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك بنظمه وأخلاقه وعامة مبادئه .. أخذ عليهم أن لا يشركوا باللّه شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصون رسول اللّه فى أى معروف يأمرهم به - وهذه هى أهم معالم المجتمع الإسلامى الذى بُعِث رسول اللّه لإنشائه » [1] .

ولقد جاءت بيعة العقبة الأولى خالية من قيمة إسلامية هامة وهى الجهاد فى سبيل اللّه ، وذلك لأن الجهاد لم يكن قد فُرِض بعد ، ولم يكن الرسول ﷺ قد أُمِر بقتال من قِبَل المولى سبحانه وتعالى .. وحينما جاء الأمر اكتملت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية التى شملت الجهاد ، وشملت مجموعة أخرى من القيم الاسلامية الرائعة .

قال عبادة بن الصامت عن هذه البيعة : « بايعنا رسول اللّه ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عُسرنا ويُسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لا تخاف فى اللّه لومة لائم » .

* * *

(١) انظر : محمد سعيد البوطى « فقه السيرة » الطبعة السابعة ص ١٢٧

قيم رائعة وفتح عظيم

كان فتح مكة مدرسة للقيم الإنسانية والإسلامية جسّدت عظمة الإسلام فى معاملته لأصدقائه وأعدائه على السواء ، ولننظر بعض دروس هذا الفتح العظيم .

ها هو سعد بن عبادة يلتقى مع أبى سفيان فى مضيق الوادى فيقول سعد : « اليوم يوم الملحمة .. اليوم تُستحَل الكعبة »

فيرفض الرسول عليه السلام هذه المقولة ويرد عليها : « اليوم يوم الرحمة .. اليوم يُعظِّم اللّه الكعبة » (١) .

ثم يأمر - عليه السلام - قادة جيوشه ألا يحاربوا إلا مَن حاربهم ، وينكر على خالد بن الوليد قتاله لبعض أهل مكة ، وحينما يؤكد له الصحابة أن خالداً لم يبدأ بعدوان ولكنه قُوتل فقاتل . يقول آسفاً : « قضاء اللّه خير » (٢) .

ويأمر أصحابه أن يتفرقوا فى مداخل مكة فلا يدخلوها من مدخل واحد حقناً للدماء ما أمكن ، وحفظاً للسلام والأمن فى هذا البلد الحرام ، ومن أجل أن لا يقاتل المسلمون إلا مَن قاتلهم ... وزيادة على ذلك يعلن - عليه السلام - أن مَن دخل المسجد فهو آمن ، ومَن دخل بيته فهو آمن ، ومَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

ويؤكد الرسول عليه السلام على حُرْمة الكعبة فى خطبته يوم الفتح فيقول : « إنَّ مكة حرَّمها اللّه ولم يُحرِّمها الناس ، لا يحل لامرىء يؤمن باللّه واليوم

---

(١) رواه البخارى وابن إسحاق وغيرهما

(٢) رواه ابن سعد فى الطبقات ، ورواه البخارى باختصار - راجع فتح البارى : ١٤/٨

الأخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجراً ، فإن أحد ترخَّص فى قتال فيها فقولوا : إن اللّه أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وقد عادت حُرْمتها اليوم كحرمتها بالأمس » [١] .

وهكذا كان الدرس الأول فى الرحمة وتعظيم المقدسات والدعوة للسلام القائم على العزة والقوة .

ويجىء الدرس الثانى فى التواضع ..

هاهو الرسول العظيم يدخل مكة فاتحاً ومعه جيش عظيم حتى إن أبو سفيان وهو يتأمل الكتائب الإسلامية يقول للعباس : « لقد أصبح مُلْك ابن اخيك الغداة عظيماً » [٢] .

رغم هذا المُلْك ، ورغم هذه العظمة ، ورغم هذا النصر المؤزر ، يستغرق الرسول ﷺ فى حالة شهود مع اللّه تعالى وهو يقرأ سورة الفتح شكراً للّه على نعمائه .. فلا فخر ولا تعاظم ولكن شكر وتواضع .

يروى ابن إسحاق أنه لما وصل - صلى اللّه عليه وسلم - إلى ذى الطوى كان يضع رأسه تواضعاً للّه حينما رأى ما أكرمه اللّه به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرَحْل .

وكان الدرس الثالث فى إعطاء الحقوق لأصحابها وأداء الأمانات لأهلها ..

يأمر الرسول عليه السلام « عثمان بن طلحة » وهو من حجبة البيت أن يأتية بمفتاح الكعبة فيجىء به ، فيفتح به البيت ويدخله مكبِّراً معلناً انتصار الحق ، ثم يخرج فيعيد المفتاح إلى عثمان بن طلحة مرة أخرى ويقول له : « خذوها

---

(١) رواه الشيخان عن أبى شريح العدوى .

(٢) رواه ابن سعد وابن إسحاق ورواه البخارى بألفاظ متقاربة .

خالدة مخلدة ، إنى لم أدفعها إليكم ، ولكن الله دفعها إليكم ولا ينزعها منكم إلا ظالم » [١] .

كان عليه السلام يقصد بقولته تلك حجابة البيت الحرام ، وكان يشير إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [٢] .

ويقدِّم الدرس الرابع من دروس الفتح قيمة عظمى أقرها الإسلام وجعلها من أسس بناء المجتمع الإسلامى ، تلك هى المساواة بين الناس ، يقول عليه السلام فى خطبة يوم الفتح : « يا معشر قريش .. إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم .. وآدم من تراب » [٣] ثم يتلو قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [٤] .

وهكذا دفن الإسلام مآثر الجاهلية ، وتمت المبايعة على أساس المبدأ الإسلامى الرائع : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

أما الدرس الخامس من دروس الفتح فقد أرسى قيمة خالدة وهى العفو عند المقدرة ، فها هو الرسول الكريم يدخل مكة منتصراً ويجمع حوله أولئك الذين آذوه وعذّبوه وأخرجوه وحاربوه ، ويصبح أمرهم بين يديه ، ويصبح فى مقدوره أن يفعل بهم ما يشاء ، ينتقم منهم بالقتل أو التعذيب أو بأخذ أموالهم وثرواتهم ، أو يطردهم من ديارهم ، كما طردوا المسلمين .. وهاهم القوم يقفون أمامه فى خشوع وذلّة ينتظرون كلمته فيهم ، فماذا كانت الكلمة ؟

ينادى عليه السلام : « يا معشر قريش .. ما ترون أنى فاعل بكم » ؟

قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم .

---

(١) رواه الطبرانى . وانظر فتح البارى : ١٤/٨ (٢) النساء : ٥٨

(٣) رواه ابن سعد فى طبقاته . (٤) الحجرات : ١٣

قال عليه السلام : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

تلك سماحة الإسلام وذلك ديدنه مع كل الذين عادوه وخالفوه فى الرأى ، يحاول اقناعهم بالحسنى فإن أبوا فـ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) ، فإن اعتدوا فالحرب النظيفة التى تحفظ للإنسان آدميته وكرامته ، فإن ضعفوا أو استسلموا فالعفو عند المقدرة ، فإن دخلوا فى الإسلام فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فإن أصُروا على عقائدهم فـ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (٢) .

أين هذا من الجرائم التى ارتكبت ولا تزال على مدار التاريخ فى ظل العقائد الأخرى ضد الذين خالفوها الرأى ؟؟؟

يتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن محاكم التفتيش التى تمت فى أوروبا ضد مَن خالفوا تعاليم الكنيسة فيقول : « يُقدَّر عدد مَن عاقبتهم هذه المحاكم بثلاثمائة ألف ، أُحْرِق منهم اثنان وثلاثون الفاً أحياء ، كان منهم العالِم الطبيعى المعروف « برنو » - نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعنى أن يُحرق حياً ، وكذلك عوقب العالِم الطبيعى الشهير « جاليليو » بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس » (٣) .

أهوال ارتكبت من أجل اختلاف حول مقولات علمية ؟ فماذا كان يجب أن يفعل الرسول لمن قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ؟ (٤) .

وقالوا : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ... ﴾ ؟ (٥) .

الإسلام لا يعرف التنكيل ، والإسلام لا يعرف البطش ، والإسلام لا يعرف

---

(١) الكافرون : ٦ (٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) أبو الحسن الندوى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » - ص ٣٩

(٤) آل عمران : ١٨١ (٥) البقرة : ١١٦

الانتقام المتبادل ، ولكنه يعرف الرحمة ، والإنسانية ، والتسامح ، والعفو عند المقدرة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم تجيء قيمة أخرى ودرس آخر من دروس الفتح يتجاهله كثير من الكُتّاب فى مثل هذه الأحاديث ، ألا وهو تقدير الإسلام للمرأة ، وإعلاء شأنها ومكانتها فى المجتمع ، فها هو الرسول ﷺ يعقد مع نساء قريش « بيعة النساء » ، ويأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة دعائم المجتمع المسلم على أساس من المساواة التامة مع الرجال فى جميع المسئوليات .. يقول صلى الله عليه وسلم مخاطباً نساء قريش : « تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصيننى فى معروف » .

تلك كانت بعض القيم الرائعة التى استخلصناها من الفتح ، جاءت على سبيل المثال لا الحصر، لأن مثل هذه الأحداث نبع لا ينضب ، ومعين لا ينفد ، يستزيد منه كل مَن أراد الزاد ، ويلهم الله مَن يريد بما فيه من دروس وعبر ، فيعطى لكل ناظر لذته ، وكل باحث بغيته ، وكل طلب أمنيته ، وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

قاموس القيم .. حجة الوداع

لو لم يكن فى الإسلام غير تلك الخطبة الرائعة التى ألقاها الرسول عليه السلام فى سفوح عرفات .. كقاموس للقيم الإسلامية ، لكفى ذلك أهل البصائر والعقول ، لقد كانت مرجعاً للقيم يستطيع كل مريد أن يجد فيها ضالته ، وكانت حافلة بالدروس الرائعة للأجيال والتاريخ ، وكانت جامعة واعية ، وكانت قبساً من نور ألقاه الرسول ﷺ بين يدىّ الأجيال ليكون هادياً ومرشداً .

والضرورة تفرض علينا حين نتحدث عن القيم الإسلامية أن نقف أمام هذه الخطبة وقفة خشوع وتأمل .

قال صلى الله عليه وسلم فى بداية الخطبة : « أيها الناس اسمعوا قولى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » .

وكأن الرسول ﷺ كان يدرك أنه ذاهب للقاء ربه ، وكأنه أراد أن يضع خلاصة تجربته وحكمته وإلهاماته فى هذه الخطبة فجاءت كما أراد عليه السلام بحراً ذاخراً بالقيم ، لا يستطيع باحث أن يوفيها حقها فى هذا المجال .. لهذا نحن لا نقدم هنا أكثر من لمحات سريعة لبعض هذه القيم العظيمة التى جاءت بها :

● الأخوة الإسلامية :

« أيها الناس .. إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ..

قيمة رائعة تجعل المسلمين إخوة فى الدين ، وإخوة فى النوع ، وإخوة فى الله ، جميعهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى ، وجميعهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، قيمة مُثْلَى

قامت على أساس العقيدة التى وحّدت المفاهيم ، ووحّدت السلوك ، ووحّدت المعاملات .

قيمة عظمى أضاءت بنورها قلوب المسلمين فصاروا وكأنهم جميعاً على قلب رجل واحد .. زرعها الرسول ﷺ فى نفوس أصحابه منذ بداية الدعوة ، فأينعت وآتت أكلها بإذن ربها ، فتنافس المسلمون فى الحب ، وفى الإيثار حتى تجاوزوا حد الاعتدال .

روى البخارى رضى الله عنه عن أنس قال : « قدم عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن ربيع الأنصارى ، فعرض سعد أن يناصفه أهله وبيته وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق ... فربح » (١) .

*

● التخلص من أرجاس الجاهلية :

« ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، دماء الجاهلية موضوعة ، وربا الجاهلية موضوع » ..

أرجاس من تقاليد الجاهلية أبعدها الرسول ﷺ عن طريق الإنسانية لينقذ الإنسان من الضلالات والعصبيات .

يتحدث الأستاذ سيد قطب عن بعض هذه الأرجاس فيقول : من هذه الأرجاس تلك الأدواء الخُلُقية والاجتماعية التى كانت فى الوقت ذاته من مفاخرهم فى أشعارهم ، ومن مفاخرهم فى أسواقهم من الخمر إلى القمار إلى الثأرات القبلية الصغيرة التى تشغل اهتمامهم فلا ترتفع عن تلك التصورات المحلية المحدودة .. هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تتثيرها حادثة ليست

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ١٨٤/٢

يذات خطر ، فقد وقعت الحرب بين تغلب بن وأئل وبكر ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء كثيرة ، وما ذاك إلا لأن كليباً رئيس معد رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها ، وقتل جساس بن مرة كليباً واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد فنى الحيان ، وثكلت الأمهات ، ويتم الأولاد ، دموع لا ترقأ ، وأجساد لا تدفن » !!

وكذلك حرب داحس والغبراء .. فما كان سببها إلا أن داحساً فرس قيس ابن زهير كان سابقاً فى رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر ، فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة ، فلطم وجهه وشغله ففاتته الخيل ، وتلا ذلك قتلٌ ، ثم أخذٌ بالثأر ، وأسرٌ ، ونزحٌ للقبائل ، وقُتِل فى ذلك ألوف الناس .

وكان ذلك من علامة فراغ الحياة من الاهتمامات الكبيرة التى تشغلهم عن تفريغ الطاقة فى هذه الملابسات الصغيرة ، إذ لم تكن لهم رسالة للحياة ولا فكرة للبَشرية ، ولا دور للإنسانية يشغلهم عن هذه السفاسف ، ولم تكن هناك عقيدة تطهرهم من هذه الأرجاس الاجتماعية الذميمة » (١) .

لقد كانت الدماء فى الجاهلية رخيصة ، وكانت النفس الإنسانية هيِّنة ، وكان القتل تجارة ، وكان الثأر شعار تتفاخر به القبائل .. كل هذه المباذل جاء الإسلام ليغيرها وليضع أسساً أخرى تختلف عن تلك التى قامت عليها الحياة فى الجاهلية ، هذه الأسس تحترم النفس الإنسانية وتجعل قتلها دون مبرر جريمة فى حق البَشرية مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (٢) .

وإذا كان الإسلام قد وقف هذا الموقف الحاسم ضد قتل النفس ، فقد اتخذ موقفاً مشابهاً ضد الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وأنذر المرابى بحرب من

---

(١) انظر جامع التفاسير ص ٣٠٥٢ (٢) المائدة : ٣٢

الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

ولعل هذا يكون مجالاً لحديث أكثر تفصيلاً فى مبحث خاص ..

*

● المساواة بين الناس :

« لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى .. »

كان ذلك نهج الرسول ﷺ تنفيذاً لأمر ربه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

كان نهجه فى رسالته ، ودعوته ، وسلوكه ، لا تفاضل بين الناس بسبب الجنس أو اللون ، وإنما التفاضل بالتقوى ، فمَن كان أقوى إيماناً وأصلح عملاً كان الأفضل .

وتلك قيمة عظمى من القيم التى أكدها الرسول ﷺ فى خطبة الوداع .. وتظهر عظمة هذه القيمة بالمقارنة مع الشرائع الأخرى ..

فشريعة الهنود البرهميين تجرد طبقة من طبقات الشعب (السودرا) من معظم حقوقها المدنية ، وتنزلها منزلة الرقيق فتقرر كتبهم المقدسة : « إن السيد الأعلى لم يعط هذه الطبقة إلا وظيفة واحدة وهى أن يكونوا خدماً للطبقات السابق ذكرها » .. وهم فوق ذلك رجس ونجس ، فلا يصح لمسهم ولا مواكلتهم ولا مصاهرتهم ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود » (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ (٢) الحجرات : ١٣

(٣) انظر الكتاب الأول من قوانين « مانو » .

وشريعة قدماء اليونان ترى أنهم هم وحدهم كاملو الإنسانية الذين زُوِّدوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة ، على حين أن الشعوب الاخرى ناقصة الإنسانية مجرَّدة من هذه القوى ، لا تزيد كثيراً على فصائل الأنعام ، وأنهم قد خُلِقوا ليكونوا عبيداً مُسَخَّرين لليونان .

والإسرائيليون يعتقدون أنهم شعب اللّه المختار ، وأن جيرانهم الكنعانيين شعب وضيع بحسب النشأة .. قد خلقه اللّه ليكون رقيقاً للإسرائيليين .. وأن هذا الوضع نشأ من دعوة دعاها نوح على ابنه حام ونسله [1] .

*

● كرامة المرأة وحقوقها الإنسانية :

« اتقوا اللّه فى النساء ، فإنكم إنما أخذتموهن بأمان اللّه ، واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه ، إن لكم عليهن حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه [2] ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

ولعل ما جاء فى صحيح البخارى على لسان السيدة عائشة رضى اللّه عنها يصوِّر هذه الحقيقة تصويراً بليغاً .. تقول : « إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ..

والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمسها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الطفل ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .

---

(١) انظر الفقرات ٢ ، ٢٩ من الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

(٢) وطء الفراش يقصد به عدم الإذن بدخول مَن تكرهون إلى المنازل وليس كناية عن الزنا .

ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها ليال بعد وضعها .. أرسلت اليهم فلا يستطيع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدتُ ، فهو ابنك يا فلان - تسمى مَن أحبت منهم باسمه - فيُلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ..

والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع مَن جاءها - وهن البغايا - كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً .. فمَن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملاً جمعوا لها ، ودعوا لها القافة ، ثم الحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك » [1] .

ويعلق الشهيد سيد قطب فى تفسيره « فى ظلال القرآن » على هذا الواقع المزرى فيقول : « ودلالة هذه الصورة على هبوط التصور الإنسانى وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق .. ويكفى تصور الرجل وهو يرسل امرأته إلى « فلان » لتأتى له منه بولد نجيب ، تماماً كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب لتأتى له منه بنتاج جيد .

إنه الوحل الذى طهَّر الإسلام منه العرب وزكَّاهم ، وكانو لولا الإسلام غارقين إلى الأذقان فيه » !! [2] .

ولم يكن حظ المرأة أحسن حالاً فى الشرائع الأخرى .

فشريعة الهنود البرهميين تنص على أن المرأة تظل طوال حياتها تحت سيطرة الرجل ومنفذة لأوامره : « لا يحق للمرأة فى أى مرحلة من مراحل حياتها أن تُجرى أمراً وفق مشيئتها ورغبتها الخاصة ، حتى لو كان ذلك من الأمور الداخلية لمنزلها ، ففى مراحل طفولتها تتبع والدها ، وفى مراحل شبابها تكون تابعة لزوجها ، فإذا مات زوجها تنتقل الولاية عليها إلى أبنائه » .

---

(١) رواه البخارى عن عائشة .

(٢) انظر جامع التفاسير ص ٣٠٥١

والقانون الرومانى يضع المرأة تحت السيطرة المطلقة للرجل فى مختلف مراحل حياتها ، بل يعتبرها هى نفسها من ممتلكات ولى أمرها قبل زواجها ، ومن ممتلكات زوجها بعد الزواج [١] .

والقانون الفرنسى حتى الوقت الحاضر يجرد المرأة من صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية ..

« المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » [٢] .

والمرأة الفرنسية - بصفة عامة - بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ، وتحمل اسم زوجها وأسرته ، مما يرمز إلى فقدان شخصيتها المدنية واندماجها فى شخصية زوجها .

أين كل هذا من ذلك التقدير العظيم الذى وضعه الاسلام للمرأة ومساواتها بالرجل فى الحقوق المدنية ، حيث تكون لها شخصيتها المدنية المتكاملة وثروتها الخاصة المستقله عن زوجها ، ولها حرية التصرف فى أموالها وأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء وهبة ورهن ووصية واحتفاظها باسمها واسم أسرتها بعد زواجها ؟

أين هذا من القيمة العظمى التى منحها الإسلام للمرأة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [٣] .

---

(١) المادتين ١٤٧ ، ١٤٨ من قوانين « مانو » .

(٢) المادة ١٧ من القانون المدنى الفرنسى « قانون نابليون » .

(٣) النساء : ١

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاءَ كَرْهاً ، وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) .

*

● حسن معاملة الخدم والرقيق :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم ، فمَن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ..

خفض الإسلام للضعفاء جناح الرحمة ، وشملهم ببره وعطفه ، وأوجب حُسن معاملتهم حتى فى الحديث ، بما يحفظ لهم كرامتهم وإنسانيتهم .. يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يقل أحدكم عبدى أو أَمَتى ، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى » .

ويؤكد الرسول حقوق الرقيق فى الإسلام فيقول بعبارات بليغة وجيزة : « ما زال جبريل يوصينى بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تُستَخدم ولا تُستَعبد » (٢) .

ولقد قدَّم عمر بن الخطاب للبشرية درساً بل دروساً عظيمة فى حسن معاملة الخدم .. ونذكر له بالتقدير هذا الموقف : روى ابن عباس أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب قَدِم مرة حاجاً ، فصنع له صفوان بن أمية طعاماً ، فأخذ القوم يأكلون وقام العبيد بين أيديهم بخدمتهم ، فغضب عمر لذلك غضباً شديداً وقال : ما لى أرى خدمكم لا يأكلون معكم ؟؟ أترغبون عنهم ؟؟ أما لقوم يستأثرون على خدامهم فعل الله بهم وفعل .. ثم دعا العبيد وأمرهم بالجلوس مع مواليهم

---

(١) النساء : ١٩

(٢) رواه الشيخان بألفاظ متقاربة .

وأن يأكلوا معهم فى جفان واحدة ولم يتناول هو شيئاً من طعام صفوان لشدة غضبه من سوء معاملته لعبيده » [1] .

ومثل هذه المواقف فى التاريخ الإسلامى كثيرة ، ولا يتسع المجال للحصر . ثم ماذا ؟؟

قيّم أخرى كثيرة يمكن استخلاصها من خطبة الوداع غير تلك التى لمسناها وأشرنا إليها :

● العدل الذى يضمن الحقوق ويمنع الظلم :

« لا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تَظلمُن أنفسكم » .

● الطاعة لأولى الأمر :

« اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّرَ عليكم عبدٌ حبشىٌ مجدع ما أقام فيكم كتاب اللّه » .

● عدم الاعتداء على الأموال أو الأعراض :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحُرْمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا » .

● عدم التحيز أو المجاملة :

« وأول ربا أضع : ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله » .

● أداء الامانة :

« اعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلّغت .. اللّهم بلغت .. اللّهم فاشهد » .

---

(١) انظر : د . على عبد الواحد وافى « الحرية فى الإسلام » - ص ٣٨

● رفض تعذيب النفس البشرية :

« وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه ، فبيعوا عباد اللّه ولا تعذبوهم » .

ثم تجيء بعد كل ذلك وقبله ومعه القيمة الكبرى وهى التمسك بالكتاب والسنة :

« لقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب اللّه وسُنّة رسوله .. » .

إنهما مدرستين للقيم ومبادىء الأخلاق منهما يتزود أولو الألباب .

* * *

obeikandl.com

قيم رائعة فى عصور مختلفة

وإذا كانت كل القيم التى تحدثنا عنها فيما سبق قد وقعت خلال عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإننا يمكن أن نتصفح التاريخ الإسلامى فى المراحل التالية لنجد عشرات بل مئات القيم الرائعة .. ولننظر بعضها :

● **قول الحق فى وجه الحكام :**

قيمة عظيمة أرساها الرسول ﷺ بحديثه المشهور : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »

نرى هذه القيمة من رجال عظماء فى مراحل مختلفة من التاريخ الإسلامى .

يدخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان بمكة وقت حجه ، فيجلسه على سريره وحوله الأشراف .

يسأله الخليفه : يا أبا محمد ؛ ما حاجتك ؟

يقول عطاء : يا أمير المؤمنين ؛ اتق الله فى حرم الله وحرم رسول الله ، فتعاهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم .

فقال الخليفه : أجل أفعل .

ثم نهض عطاء فقال الخليفة : يا أبا محمد ؛ إنما سألتنا حاجة لغيرك فما حاجتك أنت ؟

قال عطاء : مالى إلى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف .

*

وهذا سفيان الثورى يدخل على أبى جعفر المنصورفى موسم الحج فيقول جعفر : ارفع إلينا حاجتك

يقول سفيان : اتق اللّه فقد ملأتَ الأرض ظلماً وجوراً .

فيطأطىء أبو جعفر رأسه ثم يرفعه فيقول : ارفع إلينا حاجتك .

فيقول جعفر : إنما أُنزلتَ هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، فاتق اللّه وأوصل اليهم حقوقهم .

*

وهذا ثالث .. حطيط الزيات شاب لم يتجاوز العشرين يجاء به إلى الحجاج الثقفى ، وهو مَن هو ، فيسأله الحجاج : أنت حطيط ؟

فيقول : نعم .. سل ما بدا لك ، فإنى عاهدتُ اللّه عند المقام على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوقبت لأشكرن .

قال الحجاج : فما تقول فىّ ؟

قال حطيط : أقول إنك من أعداء اللّه فى الأرض ، تنتهك المحارم وتقتل بالظنة .

قال الحجاج : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟

قال حطيط : أقول إنه أعظم جرماً منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه .

*

وهذا الحسن البصرى رضى اللّه عنه يقول لابن هبيرة ـ أحد ولاة يزيد :

يابن هبيرة : إن اللّه يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من اللّه .

يابن هبيرة : خف فى اللّه يزيد ، ولا تخف يزيد فى اللّه .

يابن هبيرة : إنه يوشك أن يبعث اللّه إليك مَلَكاً فينزلك عن سريرك إلى سعة قصرك ، ثم يخرجك عن سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك .

يابن هبيرة : إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

* *

● التعفف عن أبواب السلاطين :

الحكم وصولجانه ، مثار فتنة لإيمان المؤمن .. وكان الرسول ﷺ ببصيرته النيِّرة أدرى بعواقب ذلك فحذّر منه .

قال عليه السلام : « إنه تصيب أمتى فى آخر الزمان من سلطانهم شدائد لا ينجومنها إلا رجلاً عرف دين اللّه فجاهد عليه بلسانه ويده وقلبه ، وذلك الذى سبقت له السوابق » .

قال ابن مسعود : إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له . قيل : ولم ؟! قال : لأنه يرضيه بسخط اللّه .

ومن أروع الأمثلة فى هذا الخصوص ما حدث فى عهد سليمان بن عبد الملك .. قال الخليفة لأبى حازم (أحد رجال الدين فى ذلك العصر) : مالك لا تأتينا ؟؟

قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندك ما أخافك عليه .

قال : فارفع إلينا حاجتك .

قال : قد رفعتها إلى مَن هو أقدر منك فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت .

* *

● **العفو عند المقدرة :**

قيمة عظيمة قلّ أن توجد فى غير الإسلام ، وقلّ أن يلتزم بها غير المؤمنين ، لكن التاريخ الإسلامى لا يخلو من أمثلة عديدة لمواقف العفو عند المقدرة .

وسنحاول أن نبتعد عن عصر الرسول لنقف مع حادثة فى أيام الخليفة الوليد

ابن عبد الملك .. فقد كان هشام بن أمية سيفاً مسلطاً على رقاب معارضى بنى أمية من آل البيت ، وملأ أرجاء المدنية جوراً .. فلما عزله الوليد من سلطانه أمر أن يقتص منه كل مَن آذاه ، ووقف هشام (الأمير) للقصاص ، وذهب إليه علىّ زين العابدين بن الحسين ، وكان من ضحايا تعذيب الأمير ، فلما وقف إلى جانبه .. ماذا قال ؟

قال : « السلام عليك ياهشام .. إن كان لك حاجة نقضيها لك ، وإن كان عليك دَيْن من ولايتك ؟ فإنّا نسد دَيْنك » .

تلك نماذج لقيم إسلاميه عظمت بالرجال الذين جسّدوها ، وهؤلاء نماذج لرجال تعاظموا بالقيم الإسلامية .. وما أعظم تاريخ الإسلام .

* * *

الإسلام انتشر بقيمة النبيلة

لم ينتشر الإسلام بالسيف كما ادُّعى بعض المستشرقين ، إذ أن المسلمين فى فتوحاتهم كانوا يخيِّرون الناس بين اعتناق الإسلام أو الجزية مع الاحتفاظ بعقائدهم دون الدخول فى الإسلام ، ولم ينتشر بإغراء الناس بجاه أو سلطان أو حتى جنَّات ونعيم فى الآخرة .. لكن الإسلام انتشر بقيمه النبيلة التى جذبت العقول والقلوب ، وأخذت بالألباب إلى طريق الحق والعزة والكرامة والإخاء والمساواة .. ولنرى ذلك واضحاً من خلال اعترافات المستشرقين المنصفين [١] .

يتساءل « ستانلى لينبول » فى كتابه « دراسات فى مسجد » عن سبب سرعة انتشار الإسلام ، وهل هو القانون الأخلاقى الذى تحويه العقيدة ، وما يَعِد الإسلام المؤمنين به من جنَّات ؟ .... ثم يجيب على تساؤله فيقول : إن ما حواه الإسلام من مبادىء وتعاليم سامية كافية لتعلق قلوب الملايين بالإسلام .

أما المستشرق « توماس أرنولد » فيتحدث فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » عن سبب انتشار الإسلام ويرجعه إلى عاملين :

الأول : الفتوحات الإسلامية التى تمت بعون من اللّه وتوفيقه .

الثانى : ما كان ينادى به الإسلام من مُثُل عليا ترمى إلى إخوة المؤمنين كافة فى الإسلام .

والإسلام بعد أن سطعت أنواره وعرف الناس ما فيه من قيم ومبادىء لم يُواجَه بعنت كبير من أصحاب القلوب المستنيرة ، بل إنه ووجه بالترحيب فى كثير من الفتوحات ... وإنما مَن تعنتوا ضد الإسلام هم هؤلاء الذين كان الإسلام يمثل

---

(١) المصدر لهذه الاستشهادات : د . على حسن الخربوطلى « تاريخ العالم الإسلامى » - ص ١٠١ وما بعدها .

خطراً على مناصبهم أو ثرواتهم التى اكتسبوها دون وجه حق ... لكن الكثيرين وجدوا فى الاسلام خلاصاً لهم من مفاسد ومظالم الحكام المفسدين والولاة الظالمين .

يقول الاستاذ « چوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : منح الإسلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن الأقطار المفتوحة ما تحتاجه من المُثُل العليا التى اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا بها للتضحية بأنفسهم فى سبيله ، وقد منحت هذه المُثُل العليا هؤلاء الأهالى مشاعر مشتركة وآمالاً واحدة وإيماناً متيناً يندفع به كل واحد من أبنائها إلى التضحية بنفسه فى سبيل النصر .

وواقع الفتوحات الإسلامية يؤكد هذه الحقيقة .. فعندما اتجه المسلمون لفتح الشام وجدوا قوميات مختلفة متصارعة (رومانية ويونانية وعبرية وكلدانية .. إلخ) مما أدى إلى صراع قومى وصراع اجتماعى ، وكان الطريق أمام الإسلام ممهداً لأنه أعلن عن رباط جديد وأساس جديد للوحدة الاجتماعية وهو الرباط الدينى والحضارى .

وحينما وجد أهل الشام فى الإسلام الأمان على أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ، ووجدوا فيه الطريق إلى الوحدة والتماسك دخلوا فى دين اللّه أفواجاً .

وفى مصر رحب الأقباط بالفتح الإسلامى لأنهم كانوا يعانون من الضرائب الفادحة التى فرضها الرومان على كل شىء حتى الموتى ، فاستقبلوا الجيوش العربية استقبالاً طيباً ، ومهدوا لها الطريق ، وقدّموا لها الإمداد والتموين لأنهم وجدوا فى مبادىء الإسلام عدلاً وأمناً وخلاصاً من كل أنواع المظالم .

وفى العراق وفارس كانت العقائد المجوسية قد أصبحت مجموعة من الخرافات التى لا تنفع ، وكانت الأفكار « المزدكية » تدعو إلى الإباحية والفوضى الاجتماعية ، وتجعل المال والنساء مشاعاً بين جميع الناس على قدم المساواة ، وترك هذا فى المجتمع آثاراً اجتماعية واقتصادية خطيرة ، وأصبح السائد يتنافى مع الطبيعة البشرية ، ويتنافى مع المنطلق والعقل ، فكان الناس توّاقين إلى مخرج من هذا الضيق ، ووجدوا فى الإسلام الأمل فتعلقوا بأهدابه

واستقبلوه بالترحاب ، وخصوصاً حينما عايشوا قيمة ومُثُله معايشة واقعية من خلال المزايا الخُلُقية التى تمتع بها الفاتحون .

يقول المستشرق « بارتولد » : يرجع إلى العرب الفضل فى إزالة نظام الطبقات البغيض الذى كان موجوداً فى معظم الأقطار المفتوحة ، وخاصة فى الدولة الفارسية ، فضلاً عن إخرج الفُرس من ظلمات المجوسية إلى نور الإسلام .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com